الرواية الديستوبية المصرية

(مظاهرها ولغتها)

دكتورة/ أسماء إبراهيم حسين شنقار

مدرس النقد الأدبي

بقسم اللغة العربية بكلية التربية جامعة دمنهور

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الخامس الجزء الثالث ٢٠٢٠م

الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها ولغتها)

أسماء إبراهيم حسين شنقار
النقد الأدبي – اللغة العربية بكلية التربية – جامعة دمنهور
البريد الإلكتروني : asmaashinkar@edu.dmu.edu.eg

الملخص:

هناك العديد من الأسئلة الفلسفية والوجودية التي يطرحها العقل البشري وبها يحقق وجوده، وبالإجابة عنها وعن غيرها تتحقق رؤيته لنفسه ولحياته ولوجوده، فمنها ينطلق وإليها ينتهي. ومن هنا جنح العديد من الفلاسفة والمفكرين إلى محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة الوجودية بطرق شتى فكان منها تخيل مدن مثالية تتحقق فيها رؤيتهم للإنسان والمجتمع والحياة عموما. وهذه الرؤى التي قد تصلنا من فلاسفة أو مفكرين أو رجال دين أو أدباء وتظل لدى الأجيال التالية محل نقاش وتطوير وتغيير متصل. ولما كان الأدب له دور رئيسي في طرح ومناقشة كل هذه القضايا، فقد ظهر نمط من الروايات يهتم بخلق عوالم مثالية وعوالم مضادة أخرى فوضوية قاتمة. وهما امتداد للفكرة الفلسفية القديمة، ولكل منهما تاريخه وتأثيره وخصائصه وأهميته الكبرى في تشكيل الوعي واستشراف المستقبل ،فأحدهما قائم على الأمل الكامل والآخر قائم على اليأس والتشاؤم أو لنقل الفزع مما يمكن أن يحدث في المستقبل،ولكن دافع الكتابة في كليهما غالبا ما يكون الإحساس بالمسئولية المجتمعية والالتزام تجاه المجتمع ومشكلاته. وقد انتشرت (الروايات الديستوبية) الغربية في فترة الحروب العالمية وانتشار الآلات و الذكاءات الصناعية تعبيرًا عن حالة العبثية واليأس وصورة أو رد فعل على الأمراض العصرية المنتشرة في تلك الآونة والتي تضخمت أكثر في وقتنا الراهن ،وكان لهذه الروايات الديستوبية أثرها الكبير على العالم أجمع ،ومؤخرا منذ سنوات قليلة ظهرت الروايات الديستوبية العربية في الوطن

العربي لأسباب كثيرة بعضها يتعلق بسياق الإنتاج وبعضها يتعلق بسياق التلقي ،إضافة إلى تأثرها بتلك الروايات الغربية ، باعتبار أن السياق الفكري والاجتماعي العربي قد امتلأ هو الآخر بألوان من التردي القيمي والانحلال الفكري لدى كثير من المثقفين، وقد لحظنا اهتمام كبير واقبال من جيل الشباب تحديدا على هذا النمط الأدبي سواء أكان تأليفا أم قراءة، وهذا الأخير أمر لافت ويستأهل منا التوقف لكشف أسباب رواج مثل هذه الروايات لدى جيل الشباب ،لذا فمن الضروري–من وجهة نظرنا–الاتجاه إلى دراسة ما يكون عقول الشباب وألا نغض الطرف عن مثل هذه الكتابات ، ولما لها من أهمية في نقد الواقع واستشراف المستقبل، إضافة إلى محاولات فهم وتفسير الحياة والعلاقة الجدلية بين السلطة بشتى أنواعها والجماهير . ولربطها بين عناصر الزمن الثلاث (الماضي والحاضر والمستقبل). ومن هنا تأتي أهمية دراسة الروايات الديستوبية كنمط أدبي ناشئ حديثا في الأدب العربي فنتوقف عند تعريفه وأهم مظاهره ونواحي الاشتراك بينه وبين نظيره الغربي ، مستعينين في ذلك بالعديد من الروايات الديستوبية الغربية مثل روايات جورج أورويل وألدوس هكسيلي ،وكذلك بالروايات الديستوبية المصرية والتي ركزت القول فيها على أربع روايات وهم : رواية يوتوبيا (المنشورة عام ٢٠٠٨م) ورواية ممر الفئران(المنشورة عام ٢٠١٦م) وكلتاهما للكاتب أحمد خالد توفيق،ورواية عطارد(المنشورة عام ٢٠١٥م) للكاتب محمد ربيع، ورواية قواعد جارتين بجزئيها(المنشورة عام ٢٠١٨م للجزء الأول ،و٢٠١٩م للجزء الثاني) للكاتب عمرو عبد الحميد.

الكلمات المفتاحية: نقد الرواية– ديستوبيا – استشراف المستقبل –مغالطات حجاجية – رواية يوتوبيا–ممر الفئران– عطارد– قواعد جارتين.

The Egyptian dystopian novel (its manifestations and language)

Asma Ibrahim Hussain Shengar
Literary criticism - Arabic language , Faculty of Education - Damanhour University

E-mail : asmaashinkar@edu.dmu.edu.eg

Abstract:

There are many philosophical and existential questions that the human mind raises , by which it realizes its existence , and by answering them and others , its vision for himself , his life and his existence is fulfilled , and from them it starts and ends. Hence , many philosophers and thinkers have tended to try to answer these existential questions in various ways. One of them was to imagine ideal cities in which their vision of man , society and life in general would be fulfilled. And these visions that we may receive from philosophers , thinkers , clerics , or scholars , remain with the following generations the subject of continuous discussion , development and change.since literature has a major role in posing and discussing all these issues , a style of narratives has emerged concerned with the creation of ideal worlds and other counterworlds , chaotic and dark. They are an extension of the old philosophical idea , and each has its own history , influence and characteristics. its great importance in shaping awareness and anticipating the future. One is based on complete hope , and the other is based on despair and pessimism , or to convey fear of what may happen in the future. But the motivation for writing in both is often a sense of community responsibility and commitment to the community and its problems. Western (dystopian narratives) have spread in the period of world wars and the spread of machines and industrial intelligence as an expression of the state of absurdity and despair and an image or reaction to the modern diseases spread at that time and which have amplified more in our time , and these dystopian narratives

had a great impact on the whole world , and recently A few years ago , complete Arab dystopian novels appeared in the Arab world for many reasons , some of them related to the context of production and some of them related to the context of reception , in addition to its influence with those Western narratives , given that the Arab intellectual and social context has also been filled with colors of moral degradation and intellectual decay among many intellectuals , We have noticed a great interest and turnout from the younger generation in particular in this literary style , whether it is composition or reading , and the latter is remarkable and it is worth stopping by us to discover the reasons for the popularity of such novels among the younger generation , so it is necessary - from our point of view - to study what are in the minds of Youth and not to turn a blind eye to such writings , because of their importance in critiquing reality and anticipating the future , in addition , the attempts to understand and explain life and the dialectical relationship between the authority of all kinds and audiences. its link with the three elements of time (past , present and future). Thus it is important to study dystopian novels as a newly emerging literary style in Arabic literature , so we need to study its definition , its most important manifestations , and the aspects of its association with its Western counterpart , with the help of many Western dystopian novels such as the novels of George Orwell and Aldous Huxley , as well as the Egyptian dystopian novels while focusing mainly on Four novels: Utopia novel (published in 2008 AD) and Path of Rat (published in 2016 AD) , both of them by Ahmed Khaled Tawfiq , Mercury's novel (published in 2015 AD) by writer Muhammad Rabi` , and the novel(rules of jaritin) By Amr Abdel Hamid.
key words: Criticism of the novel - Dystopia - Future foresight - Argumentative fallacies - Utopia novel - Path of Rat - Mercury – Rules of jartin.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الخامس الجزء الثالث ٢٠٢٠م

الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها ولغتها)

**مقدمة:

منذ يبدأ وعينا بالوجود ونحن نتساءل العديد من التساؤلات التي تتعلق بنا وبماهيتنا وبأهدافنا في الحياة وبعلاقتنا بالآخر. فنتساءل مثلا عن : كيف ينبغي لنا أن نعيش على هذه الأرض ،وما العلاقات الحاكمة بيننا وبين الآخر سواء أكان هذا الآخر بشرا أم موجودات أخرى أم أنظمة أم غيرها؟ وما هو النظام ؟ومن يصنعه؟ وما معيار صلاحه من فساده؟ من هو الصالح ؟ومن هو الطالح؟ ما حدودي؟ وما حدود الآخر؟ ما حريتي؟ وما حرية الآخر؟ وما .. وما... وما....؟؟؟

أسئلة كثيرة فلسفية ووجودية يطرحها العقل البشري ،وبها يحقق وجوده، وبالإجابة عنها وعن غيرها تتحقق رؤيته لنفسه ولحياته ولوجوده ،فمنها ينطلق وإليها ينتهي. ومن هنا جنح العديد من الفلاسفة والمفكرين إلى محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة الوجودية بطرق شتى فكان منها تخيل مدن مثالية تتحقق فيها رؤيتهم للإنسان والمجتمع والحياة عموما. وقد لاقت بعض هذه الرؤى رواجا لدى الكثيرين أكثر من غيرها ومثلت بعضها بذرة لرؤى أخرى. وعلى مدار الوجود البشري والفكر الإنساني تظهر أطروحات مختلفة ورؤى متعددة . وهذه الرؤى يكون دافعها ومنشؤها سياقات اجتماعية وسياسية مختلفة تحيط بصاحب الرؤية ،وهي التي تتحكم في إنتاجها، وتحدد تلقيها. وهذه الرؤى التي قد تصلنا من فلاسفة أو مفكرين أو رجال دين أو أدباء تظل لدى الأجيال التالية محل نقاش وتطوير وتغيير متصل. ولما كان الأدب له دور رئيسي في طرح ومناقشة كل هذه القضايا ، فقد ظهر نمط من الروايات يهتم بخلق عوالم مثالية وعوالم مضادة أخرى فوضوية قاتمة. وهما امتداد للفكرة الفلسفية القديمة ،ولكل منهما تاريخه وتأثيره وخصائصه. وأهميته الكبرى في تشكيل الوعي واستشراف المستقبل. فأحدهما قائم على الأمل الكامل والآخر قائم على اليأس و التشاؤم أو لنقل الفزع مما يمكن أن يحدث في المستقبل. ولكن دافع الكتابة في كليهما

غالبا ما يكون الإحساس بالمسئولية المجتمعية والالتزام تجاه المجتمع ومشكلاته. وقد انتشرت ما أطلق عليه (الروايات الديستوبية) الغربية في فترة الحروب العالمية وانتشار الآلات و الذكاءات الصناعية تعبيرًا عن حالة العبثية واليأس وصورةً أو رد فعل على الأمراض العصرية المنتشرة في تلك الآونة والتي تضخمت أكثر في وقتنا الراهن ،وكان لهذه الروايات الديستوبية أثرها الكبير على العالم أجمع فتصدر الكثير منها قائمة الكتب الأكثر قراءة ورواجا ، ومؤخرا منذ سنوات قليلة ظهرت الروايات الديستوبية العربية الكاملة في الوطن العربي لأسباب كثيرة بعضها يتعلق بسياق الإنتاج وبعضها يتعلق بسياق التلقي ، إضافة إلى تأثرها بتلك الروايات الغربية ، باعتبار أن السياق الفكري والاجتماعي العربي قد امتلأ هو الآخر بألوان من التردي القيمي والانحلال الفكري لدى كثير من المثقفين .صحيح أن كثير من الروايات العربية على مدار تاريخ السرد العربي اهتمت بعرض مشكلات الإنسان والمجتمع في الروايات وعرضت نتيجة لذلك مظاهر ديستوبية في رواياتها، ولكنها لم تكن روايات ديستوبية كاملة كما رأينا في الوقت الحالي من اهتمام واقبال من جيل الشباب تحديدا على هذا النمط الأدبي سواء أكان تأليفا أم قراءة، وهذا الأخير أمر لافت ويستأهل منا التوقف لكشف أسباب رواج مثل هذه الروايات لدى جيل الشباب ،لذا فمن الضروري–من وجهة نظرنا–الاتجاه إلى دراسة ما يكون عقول الشباب وألا نغض الطرف عن مثل هذه الكتابات ، ولما ولذلك نرنو في هذا البحث إلى الحديث عن (الديستوبيا في الرواية العربية) لما لها من أهمية في نقد الواقع واستشراف المستقبل ،إضافة إلى محاولات فهم وتفسير الحياة والعلاقة الجدلية بين السلطة بشتى أنواعها والجماهير . ولربطها بين عناصر الزمن الثلاث(الماضي والحاضر والمستقبل). ومن هذا المنطلق اهتممنا بدراسة الديستوبيا في الرواية العربية وذلك من حيث مظاهرها ولغتها.

وقد رأيت أن يكون البحث على ستة مباحث رئيسة:

المبحث الأول (الإطار النظري) :

وقد عرضت فيه مجموعة من المفاهيم الأساسية التأسيسية المهمة التي ترتبط بالبحث ارتباطا مباشرا ، وهي أربعة كل منها تؤدي للأخرى :

١-الأدب واستشراف المستقبل.

٢-أدب الخيال العلمي.

٣-اليوتوبيا.

٤-الديستوبيا(تعريفها ومفهومها).

المبحث الثاني:(التجربة الغربية للسرد الديستوبي):

وفي هذا المبحث مررت على الروايات الديستوبية الغربية المؤسسة لهذا النمط في الغرب ،وتوقفت عند كاتبين بعينهما، أولهما هو ألدوس هكسيلي ،وذلك لأثر روايته ورؤيته كذلك في كل الروايات اللاحقة له ،وفي هذا النمط بشكل عام ، وثانيهما هو جورج أورويل وذلك لأثره في الغرب عموما وفي الروايات الديستوبية العربية تحديدا ولم يكن ذلك مجرد رصد منا فقط لهذا الأمر بل تعدى ذلك إلى تصريح بعض الكتاب العرب بعبارات تنم عن هذا الأثر مثل اللغة الأورويلية ونبوءات جورج أورويل مثلا. وقد توقفت بعض الوقت عنده في روايتيه (مزرعة الحيوان)و(ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون)محاولة رصد المظاهر الديستوبية في هاتين الروايتين، لنلاحظ فيما بعد مدى التقارب والتشابه بينهما وبين قريناتهما في الرواية العربية.١-ألدوس هكسيلي.

المبحث الثالث:(التجربة العربية للسرد الديستوبي):

وقد خصصت هذا المبحث للحديث عن الروايات الديستوبية العربية التي اخترتها للدراسة عينات دالة على هذا النمط في الروايات العربية عموما والمصرية خصوصا.

وقد عرفنا فيها بالروايات محل الدراسة وهي وقد ركزت القول على أربع روايات وهم : رواية يوتوبيا (المنشورة عام ٢٠٠٨م) ورواية ممر الفئران(المنشورة عام ٢٠١٦م) وكلتاهما للكاتب أحمد خالد توفيق ، ورواية عطارد(المنشورة عام ٢٠١٥م) للكاتب محمد ربيع، ورواية قوعد جارتين

بجزئيها(المنشورة عام ٢٠١٨م للجزء الأول ،و٢٠١٩م للجزء الثاني) للكاتب عمرو عبد الحميد.

المبحث الرابع: (المظاهر الديستوبية في الروايات):

وقد خصصت هذا المبحث للحديث عن المظاهر الديستوبية في الروايات محل الدراسة ، محاولة تحديد أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين بعضها من جهة ، وبينها وبين قريناتها في الغرب من جهة أخرى.

المبحث الخامس: (اللغة في الروايات الديستوبية):

وقد خصصت هذا المبحث للحديث عن اللغة في الروايات الديستوبية دون غيرها من عناصر السرد الروائي الأخرى ، وذلك لتمظهر الديستوبيا في اللغة أكثر من غيرها في العناصر السردية الأخرى ، ودراستي للغة لم تكن من جهة استخدامها كوسيلة للتعبير عن المعاني والمفاهيم فقط، بل من جهة استخدامها في الخطاب كوسيلة للتأثير على الجمهور، فاللغة هي الأداة الأساسية التي تصاغ بها الأيدولوجيا وتشكل ،ومن ثم تنميطهم فكريا وثقافيا ، والقضاء على فردانيتهم واستقلالهم ،ومن ثم تنميط أفعالهم بما يتوافق وهوى الأنظمة الشمولية. لذا تستخدم العديد من الأدوات اللغوية مثل الشعارات والخطب والأغاني ، ويتكأ على العديد من المغالطات المنطقية المختلفة ، والألاعيب اللغوية ، وليس أدل على الارتباط بين اللغة والسياسة وكذلك على أهمية اللغة في الراويات الديستوبية من اجتراح مصطلح (اللغة الأورويلية) للدلالة على اللغة المتكئة على التزييف والتضليل . وهو مصطلح استمد في الأساس من رواية (ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون) لجورج أورويل ،وذلك يدل أيضا على التأثير الواسع الذي يلعبه السرد على المجتمع .

المبحث السادس:(الرواية الديستوبية العربية إلى أين ؟؟):

وقد خصصت هذا المبحث للحديث عن رؤيتي الختامية والاستشرافية لهذا النمط من الروايات الديستوبية.

وأنهيت البحث بأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

(١)
(الإطار النظري)

(١/١) الأدب واستشراف المستقبل:[١]

لحظات الزمن ثلاثة: ماضي وحاضر ومستقبل ، وبهذه اللحظات الثلاث يتشكل الإنسان ويتحقق وجوده ."ومن ثم فالوعي بأحداث الماضي هو مكون رئيسي من وعي الإنسان وهو المكون ذو الأهمية القصوى في فهم أحداث الحاضر باعتبار العلاقة الوطيدة التي تربط الماضي بالحاضر وهي علاقة العلة بالمعلول أو علاقة السبب بالمسبب وهو كذلك ذو الأهمية في إمكانية فهم الصورة التي ستكون عليها أحداث المستقبل(....) إن قراءة أحداث المستقبل والتنبؤ بها إنما يعتمد في الأساس على أخذ العبرة من التاريخ وأحداثه السابقة ."[٢]

وتهدف العديد من العلوم إلى البحث عن إحدى هذه اللحظات الثلاث والكشف عنها ، كل على حسب اختصاصه ،أو تحاول بعضها الكشف عنها في كل اللحظات، ولذا تستعين معظم العلوم الإنسانية ببعضها وتتكامل لتعرف كيف كان الكون أو الإنسان في الماضي وما هو تاريخه لكي تستطيع التعايش مع الحاضر وتعرف سبب حدوثه ،ومن ثم بناء على اللحظتين السابقتين تستطيع التنبؤ بما سيحدث في المستقبل. ويعتبر علم (التاريخ) من أكثر العلوم الإنسانية التي تهتم بالماضي _على وجه التحديد_ حيث يهتم بمعرفة الأحداث التاريخية السابقة ،ولكن "التاريخ بدون النظرة التأملية الشاملة يبدو أحداثًا متراصة بدون فائدة تذكر، فالمؤرخ الذي يروي الأحداث دون أن ينظر إليها تلك النظرة الشاملة، كالحمار يحمل أثقالًا، فهو يحمل الأحداث على ظهره أو بالأحرى يضعها على الأوراق دون أن يتساءل ،أية فائدة يمكن أن نجنيها من هذا الكم الهائل من الروايات للأحداث التاريخية في مختلف العصور، وكيف يمكن لأمة من الأمم أن تستفيد من هذا التراكم للأحداث التي عاشتها وتعيشها دون أن يمتلك أبناء هذه الأمة (أي مؤرخوها)القدرة على التساؤل عن مغزى هذه الأحداث وكيف يمكن من خلال تأملها واستشراف ما يمكن أن تقود إليه من أحداث جديدة في المستقبل ."[٣]

ومن هذا المنطلق فرقوا بين المؤرخ وبين الفيلسوف المؤرخ أو بين التاريخ وبين فلسفة التاريخ "فالتاريخ بالنسبة للمؤلف هو لحظتا الماضي والحاضر ،وأقصى ما يطمح إليه المؤرخ أن يفهم الحدث الحاضر من خلال الأحداث الماضية على أساس مبدأ العلية العلمية : أي الترابط بين العلة والمعلول ،بينما التاريخ بالنسبة للفيلسوف هو لحظات الزمان الثلاث : الماضي والحاضر والمستقبل .وهو لا يتأمل أحداث الماضي لفهم الحاضر فقط وإنما لكي يكون لديه القدرة على قراءة أحداث المستقبل، وهذه القراءة لما يمكن أن تكون عليه الأحداث التاريخية في المستقبل هو ماتتبدى فيه حقيقة منفعة التاريخ."[٤]

والأدباء كالمؤرخين ،فمنهم من يهتم بلحظة الماضي فقط ،ومنهم من يهتم بالحاضر فقط ،وقليل منهم من يهتم بهاتين اللحظتين ليصل للحظة التالية ويستشرف المستقبل. وبمعنى آخر :قد تجد لونيين من الكتابة التي تأخذ التاريخ مادة أساسية فتعود للماضي لتسلط الضوء على حادثة ما أو حقبة أو شخصية لأهداف مختلفة منها شعور الأديب بأهمية تسليط الضوء على فترة بعينها أو شخصية ما ،فيأخذ حينها على عاتقه هذه المهمة ، ويستخدم الأحداث التاريخية كمادة أساسية لإبداعه مازجا إياها بالأحداث التخييلية والدرامية. وهناك من الأدباء من يعود للتاريخ هاربًا من الحاضر فيسقط مشاكل الحاضر على الماضي ،ويُحمِّل الماضي بتأويلات الحاضر ويجد من أحداث الماضي وعِبَره مُعينًا له على الصبر على آهات الحاضر وآلامه. وهذا النمط السردي كثير جدا ومتكرر[٥] .

وهناك من الأدباء من يتعامل مع التاريخ مثل الفيلسوف الحكيم الذي يحاول الاستفادة من لحظات الماضي والحاضر ليستشرف المستقبل ويتنبأ بأحداثه وملامحه. وذلك باعتبار أن" الدراسة الفلسفية للتاريخ على حد تعبير هيجل تعني دراسة التاريخ من خلال الفكر ،لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان وجوهر الإنسان هو الفكر وكل ما هو إنساني لا يكون كذلك إلا من حيث ما فيه من فكر."[٦]

الفنون عموما والأدب خصوصا ليسوا مجرد" حلية وزينة أو مفخرة وأبهة لطبقات محظوظة من الناس أو متعة عارضة وتسلية وتفكهة بل هي حاجة حيوية تحتاجها الطبيعة البشرية لتستوفي كيانها البشري وتقابل بها ما يحيط بها من حقائق الوجود وقوى المجتمع وتجارب الحياة."[٧]

وتختلف نسبة استشراف المستقبل في الأعمال الأدبية ،فهناك أعمال أدبية تلمح إلى المستقبل بشكل محدود وهناك أخرى ترتكز عليه ارتكازا كما في أدب الخيال العلمي بأنماطه المختلفة .كما سنرى في الصفحات القادمة.

(١/٢)أدب الخيال العلمي:

يعتبر أدب الخيال العلمي لونا من ألوان الأدب فيرتبط هذا النمط بـ"آخر المكتشفات العلمية ،وتعمل على توظيفها في تشكيل عوالم سردية وتخييلية." [٨] وهو "يستمد جذوره العميقة من رؤية جديدة للعالم أدت إلى ظهور حقل جديد في ميدان الخيال ،وولادة أنماط جديدة من التخيل ، تبلورت في القرن التاسع عشر من خلال توجه بعض الكتاب الفرنسيين والبريطانيين إلى كتابة الروايات العلمية التي ستكون البواكير الأولى لما سيسمى فيما بعد (أدب الخيال العلمي) الذي شهد أوجه في الولايات المتحدة الأمريكية في بدايات القرن العشرين."[٩]

ويعرف بأنه "نوع أدبي يواكب الملامح الرئيسية للمجتمع المعاصر وهو يحاول استباق المستقبل ، مقتضيا انفصال إنسان العصر الذي نحياه عن إنسان ما قبل الثورة العلمية وعالمه ، وهو يقدّم مفهومًا جديدًا للإنسان والحياة وحضورًا قويًا للأزمات التي يبدو أنها ستهدد البشرية في المستقبل ."[١٠]

وينضوي تحت روايات الخيال العلمي العديد من الأنماط منها (روايات السفر عبر الزمن، وروايات الغزاة من الفضاء الخارجي ومنها أدب الخيال العلمي في وصف الكوارث وما بعد الكوارث ومنها المجتمعات المستقبلية[١١]) وكذلك الأدب اليوتوبي والديستوبي والأيكولوجي وغيرها العديد من الأنماط ، خاصة تلك التي تتأسس على مفهوم استشراف المستقبل.

بأنماطه المتعددة لم يحتل المكانة اللائقة به في المجتمعات العربية على المستويين الإبداعي والنقدي ،حيث اعتبر دائما في منزلة أقل من الأنماط الأدبية الأخرى ،رغم أنه اعتبر أدبا جادا في الدول الغربية. وقد ساهم في هذه النظرة المتدنية لأدب الخيال العلمي كبار الأدباء أمثال نجيب محفوظ مثلا حيث صرح في مجلة (المجلة) قائلا" إنه من الصعب اعتبار هذا النوع من أدب الخيال العلمي أدبا جادا لأن الأدب الجاد في نظري ،يقدم تجربة إنسانية حية ،أما أدب الخيال العلمي فهو يتخيل أشياء علمية ،ويتخيل تأثيرها في الإنسان في المستقبل ،فإذا تحققت لم يعد للعمل الأدبي قيمة (...)وإذا لم تتحقق ، فقد بقيت خيالا في خيال ،لذا من النادر أن أقرأ هذا الأدب أو أستمتع به لأنه يشغلني بانفعالات وتوقعات ثم يقدم الحل :مجرد كلام فارغ لا نعرف إن كان سيتحقق أم لا."[١٢]

ومثل هذا الموقف يعزز لدى كل من الأديب والقارئ سواء أكان قارئا عاديا أو ناقدا العزوف عن تأليف أو قراءة مثل هذه الأعمال ، وإن قرئت فلا تتعرض لنقد جاد .ولم نجد سوى قليل من الباحثين هم من حاولوا تغيير هذه الصورة. وكذلك قلة من الأدباء من حاولوا الدعوة للكتابة عن المستقبل ربما كان من أولهم توفيق الحكيم ،ولذلك وصفه بعضهم بأنه "رائد في أدب الاستشراف الذي وضحت معالمه مع روايته(رحلة إلى عالم الغد)التي كتبها سنة ١٩٧٥م."[١٣]

وكل ذلك صنع فجوة كبيرة بين الإبداعين الغربي والعربي في هذا النمط.

على أية حال .. يطول الحديث عن أدب الخيال العلمي وتاريخه ومشكلاته ، وليس هذا محله.

فما يهمنا هنا هو الحديث عن نمطين على وجه التحديد من أنماط أدب الخيال العلمي (اليوتوبيا والديستوبيا). وقد عُدا نمطان من أنماط أدب الخيال العلمي وذلك لارتباطهما الوثيق بالعلم وتبعاته ،لذلك نجد أن كثيرا من الروايات

الغربية الديستوبية تتكأ أو تشير إلى الذكاء الاصطناعي وتوغله وتبعاته المختلفة على البشرية ،وقد نجد هذا الأمر مختلفا بعض الشيء في الروايات الديستوبية العربية التي سيقل الارتباط بينها وبين العلم ومظاهره . لذا قد نجد أن الاستشراف هو المظلة الكبرى التي تجمع هذه الأنواع مع بعضها .

وما حديثنا عن اليوتوبيا هنا إلا لتقودنا إلى الديستوبيا ، فالديستوبيا بالنسبة لنا هي روايات استشرافية بالدرجة الأولى على عكس الروايات اليوتوبية التي تمثل حلما بعيدا عن الواقع وبعيدا عن المستقبل ،فهي رؤية مثالية لما ينبغي أن تكون عليه الأمور من وجهة نظرنا ،نسعى إلى تحقيقها.

(١/٣)اليوتوبيا (Utopia):

تعرف اليوتوبيا بأنها" ضرب من التأليف الأدبي أو الفلسفي يتخيل فيه كاتبه الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له،مجتمع يزخر بأسباب الراحة والسعادة لكل بني البشر. وإلى هذا المعنى في اليونانية يرجع استخدام المصطلح الذي اشتقه سير توماس مور[١٤](١٤٧٨م-١٥٣٥م) في عمله اللاتيني [١٥](utopia) عام (١٥١٦م) . ولعل هذا النوع من التأليف يضرب بجذوره في جمهورية أفلاطون التي تقدّم رؤيته في السياسة والحكم ومن ثم يغلب على أعمال الأدب اليوتوبي طابع سياسي حالم بمجتمع مثالي فاضل يسعد أهله بلا استثناء . ومن هذا النوع في العربية المدينة الفاضلة للفارابي (ت٣٣٩هـ-٩٥٠م)"[١٦]

وتقول عن اللفظة الدكتورة عطيات أبو السعود في مقدمة كتابها المترجم"المدينة الفاضلة عبر التاريخ": " كان توماس مور هو أول من صاغ كلمة يوتوبيا أو"أوتوبيا " في نطقها اليوناني .وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتن ouبمعنى "لا" وtopos بمعنى "مكان" وتعني الكلمة في مجموعها "ليس في مكان" ولكنه أسقط حرف(o) وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح Utopia ووضعها عنوانا لكتاب له هو أشهر يوتوبيا في العصر الحديث . واستخدم اللفظ منذ ذلك الحين في كل اللغات الأوربية وفي ترجمته العربية أيضا ليعني نموذجا لمجتمع خيالي مثالي يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه،ويتحرر من الشرور التي تعاني

منها البشرية ،ولا يوجد مجتمع كهذا في بقعة محددة من بقاع الأرض بل في أماكن وجزر متخيلة وفي ذهن الكاتب نفسه وخياله قبل كل شيء."[١٧]

وترصد الكاتبة التغيرات التي لحقت بالمصطلح فيما بعد حيث أصبحت الكلمة تطلق على كل "إصلاح سياسي أو أي تصورات خيالية مستقبلية أو احتمالات علمية وفنية."[١٨]،ومن البدهي أن نجد "كل أشكال اليوتوبيا تطرح أسئلة ،فهي تسأل إن كان يمكن تحسين الطريقة التي نحيا بها ،وتجيب بأنه يمكن ذلك،ويقارن أغلبها بين الحياة الحالية والحياة في اليوتوبيا ،وتوضح أوجه الخطأ في الطريقة التي نحيا بها الآن ،وبذلك تقترح ما ينبغي القيام به لتحسين الأعمال."[١٩]

وقد تنوعت "النماذج اليوتوبية ،فتم التعبير عنها في أشكال أدبية مختلفة منها المقالة والقصة والرواية والقصيدة ،أو في شكل نظريات سياسية تقدم صورة نظام سياسي نموذجي بمؤسساته المختلفة مع تصور كامل لكل تنظيمات الحياة (كما عند توماس مور)أو في بعض نظريات فلسفة التاريخ كما عند كوندورسيه)."[٢٠]

واليوتوبيا بنيت وفق أيديولوجيات مؤسسها وأفكاره ومعتقداته عن الحياة وعن الدولة ، وبناء عليه فما يعتبره بعضهم مثاليا أو يوتوبيا قد يعتبر بالنسبة للآخر ديستوبيا ،ومن أكبر الأمثلة على ذلك "جمهورية أفلاطون"التي نعتبرها كلنا إلى الآن الرمز الخالص لليوتوبيا ، ويرسم فيها أفلاطون قواعدا لكل شيء .فمثلا من الأمور التي يعتبرها الكثيرون قواعد فاسدة ولكننا نجدها قارة في جمهورية أفلاطون هي: رفض التغيير والخروج عن المألوف حتى ولو كان هذا التغيير بسيطا كما في الموسيقى. يقول أفلاطون في جمهوريته: "إذن فعلى حراس الدولة أن يحذروا من أن يفسد أي شخص كما يشاء له هواه ،لأن من واجبهم أن يكونوا في يقظة دائمة ،لئلا يأتي أحد يبدع مضادا للنظام المتبع في تربية الجسم والنفس .فإذا ما قال الشاعر" إن الناس يميلون خاصة إلى أحدث ما ينشده المغنون من أغنيات فليحرصوا كل الحرص على ألا يتوهم أحد أن

الشاعر يقصد طريقة جديدة في الغناء ، لا أغنيات جديدة ، أو أنه يحض الناس على اتباع هذه البدعة .فليس لنا أن نطري قول الشاعر هذا ، ولا أن نفسره على هذا النحو ، إذ إن ابتداع طريقة جديدة في الموسيقى شيء يجب أن نحذره، ففي ذلك إفساد تام للمجتمع(...) إنه ليتم باسم اللهو ،دون أن يبدو على المرء أنه يرتكب شيئًا ضارًا .

تماما ،فهذه هي الطريقة التي يحدث بها :إنه ليثبت أقدامه رويدًا رويدًا ، ويتغلغل خلسة في عادات الناس وطباعهم ،حتى إذا ما تمكن من نفوسهم انتقل إلى المعاملات التي تسير عليها الحكومة بكل جرأة ،بحيث لا يترك في النهاية شيئا إلا وقوض أركانه سواء في الحياة الخاصة أو في الحياة العامة."[٢١]

ولننظر إلى آراءه ورؤيته عن الأدب والموسيقى وغيرها من الفنون ودورها المنوط بها تحقيقه في هذه الجمهورية ، فعنده يجب أن" تتماشى الموسيقى والأدب والعمارة والتصوير مع معايير أخلاقية معينة .ويتوقف الفن عند كونه تعبيرًا عن الشخصية الفردية لأن عليه أن يخدم مصالح الدولة وحسب. والدولة هي التي تحدد ما هو خير وما هو شر .وما هو جميل أو قبيح ولهذا يجب أن تمنع الآلات الموسيقية والإيقاعات التي تعبر عن الانحطاط والغرور أو عن الجنون أو غيره من الشرور ،كما يجب أن يجبر الشعراء على أن يطبعوا على قصائدهم صورة الخير وحده أو يمنعوا من قرض الشعر. وإذا لم يستجيبوا لهذا فيجب أن يطلب منهم مغادرة المدينة ولابد أن يعبّر التصوير والنسيج وأشغال الإبرة والعمارة والحرف الفنية الأخرى عن الإيقاع الجيد والانسجام وإن كان من الواضح أن أفلاطون يعني بهما الإيقاع والانسجام اللذين تقرهما الدولة."[٢٢]

يبدأ أفلاطون جمهوريته –كما رأينا –بالهجوم على الحرية وخاصة حرية الفن وهو في "الحقيقة هجوم على حرية الفكر ،لأنه لم توجد في عصر أفلاطون كتب أو دور نشر ولم تكن تظهر أفكار الناس إلا من خلال التعليم

الذي كانوا يقومون به أو من خلال إنتاجهم الفني والأدبي .إن المهمة الأولى التي تحرص عليها أي حكومة شمولية هي قمع تلك الحرية ومحاولة جعل الفنان أداة في يد الدولة .الأمر الذي يؤدي حتما إلى ركود الفن وتدهوره في ظل النظم الشمولية .والفن لا يمكنه أن يصل إلى أسمى تعبير عنه إلا عندما يسمح له بأقصى قدر من الحرية .وهو ما يمكن أن يدل عليه ثراء الإنتاج الفني وتنوعه عند الإغريق .ولو كانت بلاد اليونان القديمة جمهورية شمولية كما تخيلها أفلاطون بدلا من أن تكون اتحادًا فيدراليًا بين مدن حرّة لما استطاع رجال مثل هوميروس وسوفوكليس وأرسطو وحتى أفلاطون نفسه أن ينتجوا روائعهم الأدبية."[٢٣]

لذلك سنجد أن أفلاطون قد وصف بأنه "يعتبر في بعض النواحي أعظم الثوريين كما يعد من نواح أخرى أكبر الرجعيين."[٢٤]

وتقول عنه ماريا لويزا برنيرا:"إنه أكبر ممثل للنزعة الشمولية فعلى الرغم من أن دولته المثالية يحكمها الفلاسفة ،فليس فيها من الحرية أكثر مما لو خضعت لحكام الأقاليم. والواقع أن الحرية فيها أقل ، لأن الفلاسفة أقدر من هؤلاء على سحق الحرية، وذلك بحكم أنهم أقدر على الكشف عن أي فكرة معارضة لأفكارهم . وهم على استعداد للسماح للمواطنين بقدر ضئيل من الحرية في أمور قليلة الشأن مثل التجارة ،أما في شئون الفن والتربية ،أي في كل ما يتعلق بالحرية العقلية ، فهم قساة لا يعرفون الرحمة على الإطلاق ،كما أنهم لايسمحون بأي تجديد أو ابتكار في مجال التعليم لاعتقادهم بأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة."[٢٥]

وهكذا تسير كل الرؤى وفق أيدولوجيات كل فرد ويكون تلقيها كذلك وفق أيدولوجيات ومعتقدات من يتلقونها .نعم هناك الكثير من الأمور التي تمثل ثوابتا عند الجميع أو لنقل غالبية البشر ،ولكن هناك أمور أخرى كثيرة مختلفة عند الناس.ويتحكم فيها أيضا سياق التلقي وزمنه.

ونرى السائل يسألنا عن سبب مناقشتنا لهذا الأمر هنا أو يلمح إلى أنه ليس له جدوى في موضعه ،فنرد عليه بأن هدفنا هو إبراز هذا التباين وهو ما سنجده في الروايات التي سندرسها ،حيث سنجد دائما عالمين ، عالم يظن الحكام أنه يوتوبيا بينما يرى فيه آخرون ديستوبيا. ولكأن الشيء نفسه يجمع المتناقضين ولكن بالنسبة لأشخاص مختلفين .وهذا هو الواقع وهو الخيال في آن واحد.

ويحدد الباحثون وجود ثلاثة أوجه لليوتوبيا وهي: الأدب اليوتوبي، التطبيق العملي لليوتوبيا ، النظرية الاجتماعية اليوتوبية، وما يهمنا هنا هو الأدب اليوتوبي والذي عرفه المنظر الأدبي داركو سوفين(المولود عام ١٩٣٠م) بـ"البناء اللفظي لمجتمع شبه بشري خاص تُنظم فيه المؤسسات الاجتماعية، السياسية، والأعراف، والعلاقات بين الأفراد حسب أسس أكثر مثالية من تلك الموجودة في مجتمع المؤلف ،وهذا البناء يقوم على انفصال ناشئ عن فرضية تاريخية بديلة ."[٢٦] ويسرد سوفين "الخصائص العامة لقصص المدن الفاضلة من بينها المكان المنعزل ،والمدى البانورامي المميز للوصف، والنظام الرسمي ، والاستراتيجيات الدرامية التي تتناقض مع افتراض القارئ عن الحالة الطبيعية."[٢٧]

وتكمن أهداف الأدب اليوتوبي [٢٨]في كونها "مجرد فانتازيا أو يمكن أن تكون وصفا لمجتمع مرغوب أو غير مرغوب فيه ، أو استقراء أو تحذيرا أو بديلا للواقع ، أو نموذجا يجب أن يتم الاقتداء به ."[٢٩]

اليوتوبيا كما يقول الفيلسوف البولندي ليشك كولاكفسكي "لا يشير إلى جنس أدبي وحسب ،وإنما أيضا طريقة في التفكير، إلى عقلية ،إلى موقف فلسفي ."[٣٠] ، اليوتوبيا هي فلسفة أمل وتفاؤل في الأساس.

وقد كتبت العديد من اليوتوبيات [٣١]على مدار التاريخ وخاصة في الفترة بين عام ١٥١٦ إلى منتصف القرن العشرين ، ويعتبر أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية اندلاع الحرب العالمية الأولى العصر الذهبي لليوتوبيا ،حيث

"نشر ما يزيد عن ٢٠٠ قصة من قصص اليوتوبيا."[٣٢]ومن كل مشرب فهناك يوتوبيات" اشتراكية ورأسمالية وملكية وديمقراطية وبيئية ونسوية."[٣٣]

ولكن تغيرت الأحوال ويبدو أن التشاؤم والفزع حل محل التفاؤل والأمل فظهرت الديستوبيا وبدأت تزاحم اليوتوبيا وذلك مع دخولنا في القرن العشرين ، ومع نشوب "الحربين العالميتين الأولى والثانية ،وظهور وباء الأنفلونزا ، وحدوث الكساد العظيم، ونشوب الحرب الكورية ،والحرب في فيتنام، وغيرها من أحداث القرن العشرين."[٣٤]،لذا فقد شاعت في الآداب العالمية حالة من التشاؤم والعبثية والعدمية وما أطلق عليه أمراض العصر نتيجة لهذه الحروب المستمرة وكذلك بعض الفلسفات التي تدعو للتشاؤم والعدمية والعبثية ، وكذلك نتيجة لسيطرة المادة وتراجع أهمية الإنسان ومكانته وإحلال الآلة محله، وسيطرة الذكاءات الصناعية ،لذا ليس محض صدفة أن تظهر تجليات لهذه الأمور كلها في الآداب فظهرت أنماط أدبية وموجات أدبية متأثرة بهذا اللون الأسود عند الكثيرين مثل الواقعية الطبيعية في فرنسا وما تلى ذلك بعض النصوص الأدبية ذات الصيغة الوجودية والعدمية والسريالية ، وأظن أن الديستوبيا ليست بعيدة عما نقول ، وإنما هي إعادة انتاج بشكل آخر لهذه الأسباب الداعية إلى السوداوية. وأكبر ممثل لكل الحادث في العالم ،فما يحدث في العالم ينعكس بالضرورة على الآداب، فالأدب هو صورة مصغرة للعالم ،لذا إذا زاد توغل الآلات والذكاءات الصناعية وتقزيم الإنسان وازدياد الحروب المختلفة بأنماطها ، معنى ذلك زيادة السوداوية في العالم وكذلك في الآداب .

ورغم انتشار الكتابات الديستوبية في هذه الآونة إلا أن الكتابات اليوتوبية لم تنتهي ، فمازالت موجودة ولكن النسبة قلت تماما.

ولكن مع كثرة الأدب الديستوبي وانتشاره في تلك الفترة فما زالت هناك كتابات يوتوبية إلى عصرنا الحالي.

(١/٤)الديستوبيا:

تعني "الكلمة في أصلها اليوناني (المكان الخبيث) على عكس يوتوبيا . وفي الأدب استعمل النقاد هذا المصطلح وقصدوا به التأليف الروائي الذي يصف الحياة في مجتمع أفسدته المظاهر المادية وعصفت به النزاعات السياسية والاجتماعية السلبية ،فتلاشت القيم الأخلاقية النبيلة للإنسان أمام عوامل الجشع والانحلال والآلية.

استخدمت "كلمة ديستوبيا لأول مرة في منتصف القرن الثامن عشر ، واستخدمها الفيلسوف الإنجليزي جون ستيورات مل (١٨٠٦-١٨٧٣) في خطاب أمام البرلمان في عام ١٨٦٨م،ولم يشع الشكل الأدبي واستخدام الكلمة لوصفه حتى وقت لاحق في القرن العشرين."[٣٥]

ويعرف أيضا بـ" اليوتوبيا المضادة (anti utopia) والتي تهدف في خططها الروائية إلى نقد التبعات السلبية الكامنة وراء الانصياع لصيغ بعينها من الأفكار المثالية ، وعلى كل حال تميل الروايات الخيالية عن المدينة الفاسدة إلى تضمين بعد نقدي لاذع يرمي إلى التحذير من العواقب المحتملة لتوجهات معينة في عالم الواقع."[٣٦]

وتكمن أهمية الديستوبيا في اعتمادها على الخيال فهي نقد غير مباشر للمجتمع وللنظم المختلفة ،فأدب الديستوبيا يوجه"سهام النقد إلى مواقف في العالم الواقعي بإحالتها إلى سياق غير مألوف في عالم بالغ الخيالية."[٣٧]

ويتكئ الخيال الديستوبي على"أفكار أساسية بعينها تنطوي بطريقة أو بأخرى على تعارض وصراع بين الأحكام الاجتماعية والرغبات الفردية . وفي حال المدينة الفاسدة يكون للأحكام الاجتماعية اليد العليا .ومن شأن المؤسسات الرسمية كالكنائس والمدارس والشرطة أن تقولب الأفكار والخيالات والسلوك بما يحدد للأفراد مجالا محدودًا للتعبير عن وجهات النظر المختلفة أو استعراض بدائل متنوعة لأسلوب حيواتهم ،وقد رأت المجتمعات الغربية في أوجه نشاط معينة المفاتيح الجوهرية لنمو وتطور هوية الأفراد وتحقيق رغباتهم الشخصية

مثل(الفن وأمور الجنس) ومن ثم فهي تعمد إلى مراقبتها وإحكام السيطرة عليها بتركيز وكثافة عن طريق نظم مضادة لليوتوبية من خلال استعمال أدوات ذات تقنيات عالية غالبًا لإحكام السيطرة والهيمنة على العقل . ولإنزال العقوبة بالمخالفين."[٣٨]

ويظل الخيال الديستوبي واحدا من أهم الألوان الفرعية من الخيال العلمي في بواكير القرن الحادي والعشرين . ورواية الديستوبيا وخصوصا إذا قرئت على أساس أنها تهكم لاذع ينتقد النظام الراهن)أكثر منها فانتازيا مرعبة تجعل من الواقع الراهن بالمقارنة البديل الأفضل) وتبقى إحدى الصيغ الأكثر فائدة وذات الرصيد من الخيال العلمي. وهذا الرصيد يتحقق عندما يكون النقد الديستوبي للتبعات السلبية المحتملة للاتجاهات التكنولوجية والاجتماعية والسياسية ،مصحوبا بأطروحات البدائل أفضل في حيز الإمكان والتطبيق .وبهذا المعنى فمن الجلي أن الخيال الديستوبي ليس مضادا للخيال اليوتوبي وإنما هو نوع مكمل له.

(٢)

التجربة الغربية للسرد الديستوبي

تعتبر الروايات الديستوبية في الغرب أسبق من الروايات العربية ،وهناك مجموعة من النصوص التي أسست لهذا الأدب في الغرب ،وأثرت كذلك في الديستوبيا العربية ،ومن هذه النصوص هي"رواية (نحن) للكاتب الروسي يفجيني زامباتين(١٨٨٤-١٩٣٧م)المكتوبة بالروسية عام ١٩٢٠ ،ولكنها نشرت بالإنجليزية لأول مرة عام ١٩٢٤م،ورواية الكاتب الإنجليزي ألدوس هكسيلي (Aldous Huxley)(١٨٩٤م-١٩٦٣) عالم جديد شجاع(Brave new world)عام ١٩٣٢م.ورواية الكاتب الإنجليزي جورج أوريل (ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون)١٩٤٩م والتي أصر على كتابة عنوانها بالحروف لا الأرقام [٣٩]. فهذه النصوص الثلاثة تخاطب مباشرة النظامين السياسيين الرئيسين في بدايات القرن العشرين وتنتقدهما." [٤٠]

ويهمنا في هذا الموضع عرض كاتبين على وجه التحديد وهما ألدوس هكسيلي ، وجورج أورويل وذلك لأثرهما الكبير على الروايات الديستوبية الغربية أولا ،ومن ثم العربية .

(٢١١) ألدوس هكسيلي:

كتب ألدوس هيكسلي روايته"عالم جديد شجاع"عام ١٩٣٢،وكان "مدفوعا ببغضه لروايات المدينة الفاضلة التي يكتبها ويلز _لاسيما رواية "رجال الآلهة"(١٩٣٢)–إلى جانب التكهنات السائدة في تلك الفترة حول الهندسة الحيوية."[٤١]

رواية عالم جديد شجاع من الروايات التي أثرت بشكل كبير في السرد الديستوبي الغربي والعربي وهي "لا تتنبأ بانهيار الرأسمالية ، ولكن بالانتصار النهائي للا إنسانية، أي تجريد البشر من شخصياتهم الإنسانية فترسم الرواية لوحة لمجتمع مستقبلي منغمس في المتع الحسية يقضي الأفراد فيه معظم أوقاتهم في توخي النشوات اللحظية من جنس وعقاقير ،وألوان الترفيه المغيبة للعقل والمدغدغة لأكثر من حاسة ، مثل الحسيات الشائعة والتي تلح الإذاعات في الإعلان عنها(...) والتركيز على المسرات في مجتمع هكسلي المستقبلي يخفي وراءه افتقاداً متأصلًا للحرية الفردية ،فالهدف من الجنس والعقاقير وأنواع الترفيه الدارجة في هذا المجتمع قبل كل شيء هو صرف الاهتمام عن المشاكل الاجتماعية ومنع الأفراد من ترقية أي نوع من المشاعر القوية ،قد يؤدي بهم إلى تحدي السلطات الرسمية .وتمتلئ هذه الدولة العالمية بأفراد تمت هندستهم وراثيًا لأداء أدوار بعينها ولاتدع إلا أضيق مجال للاختيار الشخصي والدولة متأهبة لاتخاذ أقصى الإجراءات للإبقاء على هذا الوضع."[٤٢]

لذا يمكن القول أن هيكسلي ركز في هذه الرواية على مجموعة من العناصر والمظاهر الديستوبية منها :أمركة العالم، تكنولوجيا الاستنساخ ،تحديد مصير المرء بيولوجيا ،التوحيد القياسي داخل المجتمع عن طريق إقرار زي موحد للأفراد وكذلك لهجة موحدة، الشعب لا يهتم بالسياسة وإنما يقبلون على كل مايقدم لهم من راحة مثل تناول مخدر السوما، الزواج الأحادي أصبح أمرا مستهجنا والشذوذ الجنسي هو الأساس.[٤٣]

ومع "حلول عام ١٩٥٨م،أصبح هكسلي مقيما إقامة دائمة في الولايات المتحدة الأمريكية ،واختار لدراسته حول الثقافة الأمريكية المنشورة في ذلك العام عنوانا يستدعي روايته الشهيرة ألا وهو"عالم جديد رائع من منظور جديد" حيث يطرح صورة قاتمة توضح تحقق عدد من النماذج المتخيلة عام ١٩٣٢م في حقبة الخمسينيات من القرن العشرين .كان هكسلي يستشعر وجود تمركز هائل للسلطة يهدد الحرية الفردية (...)وقد أعد كتابه كي ينذر العامة من ممارسات تلك "القوى الضخمة المتجردة"ويصر على أن تلك الاتجاهات ستصل إلى ذروتها في القرن اللاحق وهو عصر حكام العالم الذي سيشهد التحقق النهائي لما تصوره رواية "عالم جديد رائع""[٤٤]

ولقد أشار العديد من الباحثين [٤٥]إلى أن تصور هكسلي للمستقبل واستقراؤه له أصبح المعيار الأساسي للديستوبيات، وأنه قدم في كتابه "عالم جديد رائع من منظور جديد" ملخصا لعدد من الخصائص التي تميز قصص المدينة الفاسدة في أدب الخيال العلمي الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن هذه المظاهر الزيادة السكانية، تجار السياسة، قمع المعارضة السياسية، استخدام عمال السخرة لزيادة الإنتاج، غسل دماغ العامة وقابليتهم للتأثر بالعمليات التي تجري تحت سطح المجتمع، خداع وسائل الاعلام واعتبارها وسيلة من وسائل التشتيت الممتد للانتباه،،تحريم الكتب وإعاقة الثقافة بما يمثله ذلك من قمع الحوار.

وسنرى بعد ذلك أن مدار الديستوبيات في هذه النقاط السابقة الذكر سواء الغربية أو حتى العربية ،وذلك لأنها قيم تتعلق بالحرية والفردانية ،والعدالة والصدق.وهي قيم ثابتة ومثل عليا يبحث عنها الجميع لذا فهي من المسلمات ،واختفاءها بشكل أو بآخر لابد وأن يحول العالم الذي نعيش فيه إلى ديستوبيا.وكل ما يفعله كاتب الرواية الديستوبية أنه يتخيل أسوأ ما يمكن أن يحدث إذا اختفت صفة من الصفات ،وكيف تختفي هذه الصفة ،ويتخيل الشخصيات المسئولة عن اخفاءها أو عن ديستوبية العالم ،وكذلك الشخصيات التي تعارض هذه الديستوبية.

(٢١٢)جورج أورويل:

أثرت روايات جورج أورويل في الأدب الديستوبي بشكل كبير جدا ، واعتبرت النموذج الأمثل والأكثر إبداعا ورعبا للتعبير عن المدينة الفاسدة، ورغم بعد العصر الذي كتبت فيها رواياته خاصة روايته (١٩٨٤)والتي كتبها عام ١٩٤٩م إلا أنها مازالت من أكثر الروايات قراءة على مستوى العالم وعلى مستوى الوطن العربي خصوصا ،وقد ألهمت العديد من الكتاب العرب كما سنرى لاحقا في الدراسة .

لأورويل روايتان ذاع صيتهما بشكل كبير هما(١٩٨٤،مزرعة الحيوان)وتعدا من الروايات الديستوبية بامتياز.

****رواية(ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون):**

يتناول كتاب أورويل باهتمام كل الأفكار المحورية المصاحبة لروايات الديستوبيا الخيالية ، وهي "تصور الأوضاع القاسية في بريطانيا بعد الحرب مباشرة في ظل نظام حكم متوحش يعكس أصداء النازية إلى جانب الستالينية الروسية من خلال جهاز استخبارات الدولة وعملية التزييف اللانهائية للتاريخ الرسمي "[٤٦]. والرواية عبارة عن ثلاثة أجزاء،ففي الجزء الثاني من الرواية يعرض أورويل ما يسمى بـ(الكتاب) وهو الكتاب الذي ادعى الحزب أن غولدشتاين(عدوهم الأساسي) هو الذي ألفه،وفيه تفسير لكيفية بناء الحزب لاستراتيجياته الشمولية التي تهدف للسيطرة على كل شيء، والتي تتجنب بها الأخطاء التي وقعت فيها كل الأنظمة السابقة .

ويكمن من وجهة نظري أهم جزء فيها حينما تحدث عن (الحركة الدائرية للمجتمع) ،فعبر التاريخ كان هناك ثلاث طبقات في المجتمع الطبقة العليا والوسطى والدنيا "وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية ، وحملت أسماء مختلفة لا حصر لها ولاعد (....)وأهداف هذه الطبقات كانت متضاربة ولايمكن التوفيق بينها على الإطلاق، فهدف الطبقة العليا هو البقاء حيث هي ،وهدف الطبقة الوسطى هي الحلول محل الطبقة العليا، أما هدف الطبقة الدنيا ،إن كان لها هدف ،ذلك أن من الخصائص الثابتة لدى هذه

الطبقة هي أنها تعيش مسحوقة تحت وطأة مطالب الحياة اليومية فلا تعي شيئا خارجها .وهو إزالة كل الفوارق الطبقية وإنشاء مجتمع يكون فيه جميع الناس سواسية ."[٤٩]

وعبر التاريخ وفي حركات وثورات مختلفة تزيح الطبقة الوسطى الطبقة العليا وتحل محلها وتحصل على السلطة ، وتأخذ الطبقة الوسطى الطبقة الدنيا في صفها وقت النضال فقط وتغريها بأمور شتى ، ولكن ما إن تصل لهدفها حتى تزج بالطبقة الدنيا إلى وضعها القديم ،وتتكون طبقة وسطى جديدة "من إحدى الطبقتين الأخريين أو كليهما معا ليبدأ الصراع من جديد. ومن بين الطبقات الثلاث فإن الطبقة الدنيا هي الوحيدة التي لاتفلح أبدا ولو مؤقتا في بلوغ أهدافها (...) ومن وجهة نظر الطبقة الدنيا فإن أي تغيير تاريخي لا يعدو أن يكون مجرد تغيير في أسماء سادتها."[٥٠]

وقد فهم الحزب هذا الأمر وهذه الفلسفة وأراد أن يحرص على بقاءه في الحكم بصفة دائمة ولا يزاح من قبل الطبقة الوسطى مثلما حدث مع كل الأنظمة ،وبذلك توفر لهم أمران(التراكم المعرفي التاريخي ونمو الحس التاريخي) وهما أمران لم يكونا موجودين من قبل القرن التاسع عشر "وهو ما جعل الحركة الدائرية للتاريخ مفهومة في الوقت الحاضر ،أو بدا أنها كذلك، وبما أنها باتت مفهومة فهذا يعني أنه بات بالإمكان تغييرها."[٥١]

ومن هنا نبعت كل استراتيجية للحزب، وهي كلها **مظاهر ديستوبية** بامتياز ، فمن ذلك مثلا:

١ – <u>تكريس الطبقية:</u>

رأى الحزب أن "المساواة بين البشر لم تعد غاية سامية تستحق النضال من أجلها .وإنما خطر يجب تفاديه " لذا حرصت على إبقاء المجتمع مقسما لطبقات، فعلى "قمة الهرم يأتي الأخ الكبير وهو معصوم عن الخطأ ويتمتع بقدرة مطلقة . وكل نجاح وكل إنجاز وكل انتصار وكل اكتشاف علمي ينسب إليه . كما أن كل معرفة وكل حكمة وكل سعادة وفضيلة إنما يعزى الفضل فيها مباشرة إلى قيادته الرشيدة الملهمة .ولم يحدث أن رأى أحد الأخ الكبير ،فهو

وجه مطبوع على لوحة أو صوت يصدر عن شاشة الرصد ، ويمكننا أن نكون على درجة قوية من اليقين بأنه لن يموت كما أن هناك حالة من الشك تحوم بالفعل حول تاريخ مولده ،إنه الشكل الذي اختار الحزب أن يظهر به أمام أعين العالم .وأما دوره فهو أن يكون جماع الحب والخوف والتبجيل وهي مشاعر يسهل على الفرد أن يحسها نحو فرد آخر لا نحو منظمة ما .وبعد الأخ الكبير يأتي الحزب الداخلي الذي لا يزيد عدد أعضائه على ستة ملايين أو قل ٢% من سكان أوقيانيا، ثم بعد ذلك يأتي الحزب الخارجي والذي إذا جاز لنا وصف الحزب الداخلي بأنه العقل المفكر للدولة ،فإن الحزب الخارجي هو الأيدي العاملة فيها . وفي أسفل الهرم تأتي الجماهير الصماء التي ألفنا أن نسميها "البروليتاريا"والتي تمثل مانسبته٨٥%"[٥٢]

ولكل طبقة من هذه الطبقات استراتيجية يتعامل بها الحزب معهم حتى يضمن ولاءهم التام وحتى يقضي على كل تفكير مستقل، فقد أدرك الحزب أن من سبل بقاءه في السلطة هو البقاء كجماعة وليس كفرد واحد .لذا حرصوا على القضاء على الذاتية والفردانية ،وكذلك على تشكيل وعي الفئة المسيطرة والفئة التي تليها تحديدا والتي تتولى تنفيذ ما يعهد إليها من مهام من قبل الفئة المسيطرة، ولم يهتموا بالعامة فقد رأوا أنه يجب التأثير عليهم بشكل سلبي، فقد ألهوهم في شظف العيش والحصول على ضرورات الحياة وسط الحرب الدائمة المستمرة. فأفرادها "إذا ما تركوا وشأنهم فإنهم سيستمرون من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن يعملون ويتناسلون ويموتون ،ليس دون أن يكون لديهم أدنى دافع للتمرد فحسب، بل ودون أن تكون لديهم القدرة على إدراك أن العالم يمكن أن يكون على غير ما هو عليه الآن. وهم لا يصبحون مصدر خطر إلا إذا بات التقدم الصناعي مرهونا بتثقيفهم ثقافة عالية."[٥٣]

لذا فهم لا يأبهون البتة بتثقيفهم ،بل يسعون إلى إبقاءهم في جهل وفقر حتى يضمنوا عدم ثورتهم وتمردهم، فالمجتمع الطبقي لا يمكن أن يستمر إلا مع الفقر والجهل . ومع ذلك فحتى النذر القليل الذي يمكن أن يكون بداية

تمرد يرصدوه من خلال بث عناصر شرطة بينهم تراقب كل شيء [٥٤]،ومن الجدير بالذكر أن من شعارات الحزب(عامة الشعب والحيوانات أحرار).

أما بالنسبة للطبقة المسيطرة والطبقة التالية(أعضاء الحزب الداخلي والخارجي) فكان لهم استراتيجيات مختلفة في التعامل معهم، كما سنرى في النقاط اللاحقة.

٢- **القضاء على الفردانية والاستقلال والحياة الخاصة:**

في اللغة الجديدة التي ألفها الحزب هناك مصطلح اسمه(الحياة الخاصة)وقد عرّفه الحزب بأنه "يعني الفردية والتمركز حول الذات"[٥٥] ،فوفقا للحزب يجب القضاء على كل مظهر يوحي بالفردانية والاستقلال لذا فكل استراتيجياتهم وأفعالهم تراعي هذه النقطة ،فما كان لأحد أعضاء الحزب أن "يكون لديه وقت فراغ أو أن ينفرد بنفسه إطلاقا إلا عند نومه ، بل كان من المفترض أن يشارك في أي لون من ألوان الترفيه الجماعي طالما أنه لا يعمل أو يتناول طعاما أو ينام .وكان إقدام العضو على عمل يوحي بميل للعزلة حتى لو كان ذلك نزهة على الأقدام يقوم بها منفردا هو عمل فيه مخاطرة واضحة."[٥٦]

ولكي يضمن الحزب القضاء على الاستقلالية فإنه يتم مراقبة كل شخص طوال الوقت.

٣-**المراقبة المستمرة:**

أكثر الأفكار رعبا في رواية جورج أورويل هي فكرة أن تكون مراقبا طوال الوقت ، ليست أفعالك فقط هي المراقبة ، بل وانفعالاتك وأفكارك ونواياك. حيث يحرص الحزب بطرق مختلفة على هذا الأمر من خلال الآتي:

أ) شاشات الرصد: تتم مراقبة أعضاء الحزب من خلال شاشة معدنية موجودة في منازلهم وفي كل مكان "وهذا الجهاز يرسل ويستقبل في آن واحد " [٥٧] فبإمكانه التقاط الصوت الذي يصدر عن الأشخاص والذي يتجاوز حد الهمسات الخافتة .

ب) أجهزة التنصت والميكروفانات: وهي مبثوثة ومنتشرة في كل مكان ،حتى في الريف، ترصد كل الأصوات وتسجل كل شيء.

ج) شرطة الفكر: يمكن أن يتوقع الإنسان أن تراقب أفعاله ،لكن أن تراقب الأفكار فهذا شيء عسير، بل ومرعب، ولكنه سبيل بقاء السلطات الشمولية في مكانها، فلا يسمحوا لأي شخص بأن يفكر أنه سيفكر في شيء مخالف لما يقوله الحزب. وإن حدث ذلك فشرطة الفكر له بالمرصاد ، لذا هي تمثل رعبا حقيقيا لكل من يفكر. يظهر ذلك لنا من خلال المقطع السردي التالي والذي يتحدث عن ونستون :" وما إن استفاق لما يخطه بيده حتى تملكه شعور بالفزع والهلع . إن الأمر لايعدو أن يكون هراء إذ إن كتابة هذه الكلمات لم تكن أشد خطرًا من مجرد اقتنائه مفكرة والبدء في تسجيل مذكراته .وقد راودته الرغبة في تمزيق الصفحات ومن ثم التخلي عن ذلك المشروع المغامر برمته. ولكنه لم يفعل ذلك لإدراكه أن تمزيقها لن يجدي فتيلا، وسيان أكتب ليسقط الأخ الكبير أو أحجم عن كتابتها ،وسواء احتفظ بالمفكرة أو لم يحتفظ بها ،فإن شرطة الفكر ستعتقله. فقد اقترف ومازال يقترف جرما ،بل وحتى لو لم يضع القلم على الورق فقد اقترف أم الجرائم التي تنطوي على جميع الجرائم، إنهم يطلقون عليها (جريمة الفكر)"[٥٨] فبكتابة ونستون لمذكراته وحتى اقتنائه مفكرة والتفكير فيما سيكتب يعرضه لخطر الاعتقال من قبل شرطة الفكر، وهو متأكد أنه سيلقى القبض عليه ، وعاجلا أم آجلا ستكتشف شرطة الفكر جرمه، وذلك يوحي لنا بمدى إحكامهم السيطرة على المجتمع ودقة عملهم وحزمهم ،بل ويوحي باليأس المسيطر على الأشخاص، وإيمانهم بعدم جدوى أفعالهم المخالفة لما يقوله الحزب فهي بلا تأثير ، فالحزب أقوى من كل شيء.

ومن المرعب جدا في الرواية أن ملامح الوجه نفسها مراقبة ويعتد بها كجرائم تدل على الفكر حيث "إنه لخطر جسيم أن تدع أفكارك تجري على عواهنها حينما تكون في مكان عام أو ضمن مدى شاشة الرصد .فأهون الأشياء يمكن أن تؤدي بك حتى لو كانت حركة عصبية صغيرة أو نظرة قلق لاإرادية أو همهمة اعتادها المرء، أو أي شيء يوحي بنقص في الولاء وفي كل

الأحوال فإن ظهور تعبير انفعالي غير لائق على وجهك (كأن تبدو عليك علامات الارتياب حينما يتم الإعلان عن أحد الانتصارات)هو مخالفة تستوجب عقابا ، بل لقد اشتق لذلك اسم في اللغة الجديدة : جريمة الوجه."[٥٩]

د) منظمة الجواسيس:لايعهد بمراقبة الفكر لشرطة الفكر فحسب ،بل هناك منظمة الجواسيس وهي شديدة الخطورة حيث تتجسس على الناس وتحكم سيطرتهم عليها.

هـ) الأطفال: في أوقيانيا يمثل الأطفال رعبا لأهاليهم حيث ينضمون منذ الصغر لمنظمة الجواسيس، ويتم تشكيل وعيهم وفقا لما يراه الحزب منذ الصغر وبذلك يضمن ولاءهم التام . يقول ونستون" إن معظم الأطفال في هذه الأيام قد باتوا مصدر رعب لأهلهم .وأسوأ ما في الأمر أن الصغار بانضمامهم إلى منظمات مثل اتحاد الجواسيس كان يتم تحويلهم بشكل منهجي إلى رعاع صغار لايمكن ضبطهم .وهذا بدوره يقتل فيهم أي ميل إلى الثورة ضد نظام الحزب ،بل على النقيض من ذلك سيصبحون عبيدا للحزب ولكل مايتصل به.إن الأغنية والمواكب وحمل الرايات والرحلات الجماعية والتدريب على الأسلحة الزائفة والهتاف وتقديم فروض الطاعة والهتاف بحياة الأخ الكبير، كل ذلك كان نوعا من اللعب الممتع بالنسبة لهم .أما ضراوتهم وشراستهم فكانتا توجهان إلى الخارج ،إلى أعداء الدولة إلى الأجانب والخونة ورمز المخربين ومجرمي الفكر. وكان أمرا طبيعيا لمن هم فوق سن الثلاثين أن يخافوا أولادهم، فلم يكن يمر أسبوع إلا وتنشر فيه جريدة التايمز قصة تحت عنوان "بطل صغير" تروي كيف استطاع "البطل"أن يتنصت على والديه ويشي بهما لشرطة الفكر بنقله ملاحظات تضعهم موضع شبهات."[٦٠]

ويظهر ذلك في الرواية من خلال أطفال السيد بارصون وهو من أعضاء الحزب الخارجي والذي يدين بالولاء الكبير جدا للحزب ويشارك في كل أنشطته ويتطوع لجمع التبرعات ،و يربي أولاده على الولاء التام للحزب ويفخر بهم لأنهم يتجسسون على الناس ويبلغون عنهم .وفي النهاية ورغم ولاءه وقع هو نفسه في الفخ حيث أبلغت ابنته عنه ، فقد"كانت تسترق السمع من ثقب الباب وسمعت

ما كان يهذي به"[٦١] وهو نائم ،حيث كان يقول(ليسقط الأخ الكبير)،ورغم ذلك هو فخور بها ويشعر أنها طفلة متقدة الذكاء ،ويرى أنه مذنب ويجب أن يعاقب على هذه الأفكار السوداوية التي اختبأت في عقله الباطن.

**ويحيط بكل هذه المظاهر سياق عام يؤكد لك طوال الوقت أنك مراقب ويتمثل في صورة الأخ الكبير الموجودة في كل مكان وتحتها عبارة (الأخ الكبير يراقبك). يقول الكاتب :"عند كل منعطف من منعطفات السلم السبعة ،وعند كل محطة من محطات المصعد وبمواجهة الباب تنتصب صورة الوجه الضخم لتحدق في وجه كل قادم ،إنها واحدة من تلك الصور المرسومة على نحو يجعل المرء يعتقد أن العينين تلاحقانه أينما تحرك ،وكان يوجد أسفل تلك الصورة عبارة بارزة تقول(الأخ الكبير يراقبك)"[٦٢].

وتمثل هذه الصورة المرسومة بدقة والمنتشرة بكثافة مصدر رعب حقيقي للناس ، ورهبة كبيرة، فقد اعتمدوا على التكرار والانتشار الكبير للصورة والعبارة من جهة وإخراج الصورة نفسها بطريقة تشعر المشاهد بالمراقبة المستمرة . ويظهر ذلك من المقطع السردي التالي: "أخرج من جيبه قطعة نقود من فئة الخمسة والعشرين سنتيما ،كان على أحد وجهيها هذه العبارات نفسها وقد نُقشت بأحرف دقيقة واضحة ،بينما نقش على الوجه الآخر وجه الأخ الكبير. كانت عيناه ، حتى من خلال قطعة النقود تلاحقانك .على العملة ،على الطوابع، على أغلفة الكتب، على الأعلام، على ألواح الإعلانات ،على علب السكاكر. في كل مكان ودائما، عيناه تراقبانك وصوته يحيط بك .وسواء كنت مستيقظا أو نائما ، تعمل أوتأكل ،داخل منزلك أو خارجه ،في الحمام أو في الفراش لا فرق، لا مهرب لك. أنت لا تملك سوى تلك السنتيمترات المكبة داخل جمجمتك."[٦٣]

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن فكرة المراقبة المستمرة من أكثر المظاهر الديستوبية رعبا وتأثيرا في المتلقي في رواية جورج أورويل .وقد استخدمت بكثرة في الروايات الديستوبية بشكل عام مع تغييرات في حجم وجودها وكيفيته.

٤-**طمس التاريخ(إعادة كتابة التاريخ): ٦٤**

كان الحزب حريصا على تملك الماضي لكي يتملك الحاضر والمستقبل لذا كان يعمل بشكل دائم من خلال وزارة الحقيقة على تزييف كل الحقائق والأحداث التي لا تتوافق وسياستها ،ولكنها لم تكن تسميها تزييف وإنما كانت تلطف في الألفاظ فتسميها (تعديل ،أو أخطاء مطبعية) وكانت التزييفات تنال كل ما هو مكتوب ،فقد يغير الكتاب عشرات المرات حتى يصبح لايمت بصلة للنسخة الأولى للكتاب.

وتغير الماضي بالنسبة للحزب ضروري لسببين "أولهما وهو ثانوي أو لنقل احترازي ،أن عضو الحزب مثله مثل أي فرد من طبقة البروليتاريا يحتمل ظروف حياته الراهنة لأنه لا يملك معايير للمقارنة ،إذ يجب أن ينقطع انقطاعا كليا عن الماضي تماما ،كما يجب أن ينقطع عن الأقطار الأجنبية لأن من الضروري بالنسبة إليه أن يؤمن بأنه أفضل حالا من أسلافه وأن مستوى معيشته ورفاهيته في ارتفاع تام، وأما السبب الأكثر أهمية لإعادة رسم الماضي فيكمن في الحاجة إلى حماية فكرة عصمة الحزب" [٦٥]ويقصد بها عصمته من الخطأ سواء في توقعاته وتنبؤاته أو في أفعاله، فمثلا إذا كانت دولة أوراسيا أو إيستاسيا عدو اليوم، فيجب أن تظل دائما هي العدو ،وإذا كانت حقائق التاريخ تقول غير ذلك فيجب أن يتم تغيير ذلك ،لذا فالتاريخ يتم إعادة كتابته طوال الوقت. وليس ذلك فحسب بل يجب على الشعب تصديق ذلك ،وهو ما يدعى بازدواجية التفكير. ونتيجة لذلك التزييف لا يستطيع الشخص مقارنة الحاضر بالماضي ويصعب عليه الوصول للحقيقة ،وبذلك يرضى بالحال الذي يعيش فيه ويرى أنه أفضل بكثير. ومع توالي الأجيال يضيع كل الماضي .

٥-**ازدواجية التفكير:**

إذا كانت الحقائق التاريخية والماضي يعيشان في مكانين ،في السجلات المكتوبة وفي الذاكرة، والحزب يسيطر على السجلات المكتوبة فيغيرها طوال الوقت ، يتبقى حينها الذاكرة البشرية والتي يرى الحزب أنه يمكن السيطرة عليها

أيضا من خلال التدريب فـ"من الضروري أن يتذكر المرء أن الأحداث وقعت بالطريقة المرغوبة . ولئن كان ضروريا للمرء أن يعيد تشكيل ذكرياته أو يعبث بالسجلات المكتوبة ،فمن الضروري أيضا أن ينسى أنه قد فعل هذا .وهذا الاحتيال يمكن أن يتعلمه المرء مثلما يتعلم أي طريقة ذهنية ، وهو الأمر الذي يتعلمه أي غالبية أعضاء الحزب وبالأخص الأذكياء منهم والمخلصين للحزب، وكان يطلق على ذلك في اللغة القديمة "السيطرة على الحقيقة" بينما يطلق عليه في اللغة الجديدة "ازدواجية التفكير""[٦٦]

وازدواجية التفكير من المبادئ الأساسية للحزب والتي تعني بالنسبة لهم أن تعتنق معتقدين متناقضين في وقت واحد وتقبلهما معا، فهو يعرف أنه يغير الحقائق ، ولكنه في الوقت ذاته يقنع نفسه بأنه لم يدنس الحقيقة، ويجب أن تتم هذه العملية بوعي وإدراك وإلا تعذر تنفيذها بدقة وعلى الوجه المطلوب، كما يجب أن تتم بدون وعي وإلا ستولد شعورا بالزيف ومن ثم بالإثم.

ويبدو للناظر أنها متاهة لا تنتهي فالتفكير الازدواجي هو "أن تعرف وأن لاتعرف ،أن تعي الحقيقة الكاملة ،ومع ذلك لا تفتأ تقص الأكاذيب محكمة البناء ، أن تؤمن برأيين في آن وأنت تعرف أنهما لا يجتمعان ومع ذلك تصدق بهما ، أن تجهض المنطق بالمنطق .(...)أن تفقد الوعي عن عمد ووعي ،ثم تصبح ثانية غير واعي بعملية التنويم الذاتي التي مارستها على نفسك .بل حتى إن فهم عبارة التفكير الازدواجي تستدعي منك اللجوء للتفكير الازدواجي."[٦٧]

والحزب وسياساته كلها قائمة على ازدواجية التفكير ومن أمثلة ذلك دعوتهم لازدراء الطبقة العاملة ازدراء لم يسبق له مثيل ومع ذلك فأعضاء الحزب يلبسون زيا موحدا كان في يوم من الأيام يميز العمال اليدويين ،"ويعمل الحزب بصورة منهجية على تقويض دعائم التماسك الأسري ،ويطلق على زعيمه اسم (الأخ الكبير) وهو رمز مباشر للولاء الأسري، بل وحتى أسماء الوزارات الأربع التي تحكمنا تبدي شيئا من الصفاقة فيما تمارسه من قلب متعمد للحقائق ،فوزارة السلام تعني بشؤون الحرب، ووزارة الحقيقة مهمتها التزوير

وخلق الأكاذيب ،ووزارة الحب تسوم الناس العذاب ،أما وزارة الوفرة فتعني بتجويع الناس حتى الموت ،وليست مثل هذه المتناقضات عرضية كما أنها ليست نتاجا لرياء عادي بل هي ممارسات مدروسة ومخططة لازدواجية التفكير."[٦٨]

٦-**اخضاع السيطرة على الفن :**

حتى الفن بأنواعه سواء أكان موسيقى أو أدب يسيطر عليهم الحزب ، ويستخدم لأهداف الحزب ووفق أيديولوجياته، فالموسيقى تؤلف من قبلهم بواسطة جهاز يعرف بالناظم[٦٩] ، أما الروايات فهي تتم من قبل قسم الإثارة . والروايات الإباحية تؤلف أيضا من قبلهم في قسم الخيال ، وتسوق بين شباب العامة في الخفاء فيبتاعونها باعتبارها من المحظورات التي حصلوا عليها.[٧٠]فبذلك يتم التحكم في كل شيء ولايترك أي شيء يتم دون علمها حتى ما يتوهم العامة أنه يتم من وراءهم ويستمتعوا بتهريبه يتم بعلمهم أيضا ، فيتركوهم ليفرغوا طاقتهم في هذه الأمور، ولكن تحت ناظرهم وبتوجيههم.

٧-**توجيه الحب والعاطفة:**

من الطبيعي في أي عالم أن يتم الحب لاإراديا في الغالب الأعم ،ومن الطبيعي جدا أن تنشأ علاقات عاطفية بين الزوجين، وأن تنبت المحبة والمودة بين أفراد العائلة الواحدة. ولكن لهذه المحبة وهذه العلاقات نواتج والتزامات ،فإذا أحببت أو توطدت أوشاج المحبة بين شخصين أو مجموعة من الأشخاص ،حينها يكون هناك تضحية ومودة وولاء وخوف على الآخر وأمور كثيرة .لذا تمثل هذه العلاقات تهديدًا بالنسبة للحزب خاصة إذا نشأت ونشبت بين أعضاء الحزب الخارجي والداخلي لذلك شكلت وعيهم بحيث لا يكون للعلاقات الأسرية أي معنى ومن العادي جدا أن يراقب أفراد الأسرة بعضهم البعض.

يقول الكاتب بخصوص هذا الأمر "وما خطر لونستون هو أن موت أمه ، منذ ثلاثين سنة تقريبا ،كان مأساة محزنة بشكل لم يعد موجودا .فالمأساة كما يفهمها ، باتت شيئا يخص العالم القديم ،وينتمي لزمان كان ما يزال فيه

خصوصية وصداقة وحب، لزمان كان ما يزال أفراد العائلة الواحدة يقفون فيه جنبا إلى جنب دونما حاجة إلى معرفة السبب. كانت ذكرى وفاة أمه تمزق قلبه فقد كانت تحبه ،وماتت وهي تحبه، فيما كان هو صغيرا وأنانيا أعجز من أن يبادلها حبا بحب ،ولسبب لا يعرفه لم يكن يتذكر كيف ضحت بنفسها في سبيل مفهوم من الولاء كان خاصا بها وغير قابل لأن يتحول أو يتزعزع .ورأى أن أشياء كهذه لا يمكن أن تحدث في هذه الأيام التي باتت زمنا للخوف والكراهية والألم ،ولا مكان فيها للعواطف السامية أو للأحزان العميقة أو المعقدة المتشابكة." [٧١]

كان ونستون دائما ما يقارن بين العلاقات الآن وبين ما يتذكره من علاقاته سابقا، وذلك لافتقاده الدائم لمثل هذه العلاقات القائمة على المحبة والمودة والإخلاص بعيدًا عن العلاقات القائمة على النفعية والمصلحة فقط.

لا يسمح الحزب بأي عواطف وانفعالات إلا تجاه الحزب ،ومن أجل مصلحته فقط، حتى العلاقات الخاصة بين الزوجين تكون من أجل مصلحة الحزب ،لإنجاب أطفال يكونون في خدمة الحزب. ويظهر ذلك واضحا في علاقة ونستون بزوجته كاترين التي كانت مدينة بشكل تام للحزب وعلاقتها بزوجها علاقة آلية تماما ،وكانت تطلق على العلاقة بينهما التي تكون بموعد محدد وثابت اسمان: أولهما "صناعة طفل" والثاني "واجبنا تجاه الحزب" ،لذلك انفصل عنها ونستون دون طلاق لأن الطلاق محرم في مبادئ الحزب ،وحصل على نزواته من نساء العامة في الخفاء، ولكنه كان دائم التحسر على عدم حصوله على امرأة يحبها وتحبه ويكنان لبعضهما العواطف الطبيعية بعيدا عن الحزب وأهدافه ،يظهر ذلك لنا من المقطع السردي التالي: "ووجد نفسه واقفا هناك في ضوء المصباح الخافت وقد امتلأت خياشيمه برائحة البق والعطر الرخيص وفي قلبه شعور بالانهزام والنفور ، ممزوجا بالتفكير في جسد كاترين الأبيض الذي تجمد إلى الأبد تحت تأثير قوة الحزب التخديرية. وتساءل لماذا يضطر إلى ذلك ؟لماذا لا تكون له امرأة تخصه ،بدلا من تلك النزوات القذرة

التي تنتابه على فترات متباعدة؟ لقد كان وجود علاقة حب حقيقية أمرا لا يمكن الطموح إليه إذ كانت نساء الحزب كلهن متشابهات. كانت العفة متجذرة فيهن تجذر ولائهن للحزب فبفضل إعدادهن الباكر وممارستهن الرياضة واستعمالهن الماء البارد والتفاهات التي كانت تحشى بها عقولهن في المدارس وفي رابطة الجواسيس ورابطة الشباب ،والمحاضرات والعروض والأناشيد والشعارات والموسيقى العسكرية ،بفضل كل ذلك كان ينتزع منهن كل شعور طبيعي .كان عقله يخبره بأنه لابد أن هناك استثناءات لذلك، ولكن قلبه لم يصدقه ،إذ كن جميعا محصنات مثلما أرادهن الحزب، وكانت غاية آماله أن يسقط حصن الفضيلة ولو لمرة واحدة في حياته .ولما كانت ممارسة العملية الجنسية على طبيعتها تعتبر عصيانا ،فإن مجرد الرغبة الجنسية تصبح جريمة فكر ،وحتى إذا أمكنه إيقاظ كاترين من سباتها العاطفي ،لكان ذلك اعتبر اغواء لها رغم أنها زوجته."[٧٢]

ونتيجة لذلك اعتبر ونستون العامة بشرًا بينما هم خلوا من البشرية ، فالعامة مازالوا يملكون هذه العواطف وولاءهم ليس للحزب وإنما لبعضهم البعض، ومازالوا يهتمون بالعلاقات الفردية.[٧٣]

٨-**<u>الاعتقالات والاعدامات:</u>**

في هذا العالم الديستوبي الذي يسيطر فيه الحزب على كل شيء تكثر الاعتقالات[٧٤] والاعترافات بأمور لم ترتكب ،وحفلات تعذيب كاملة ، واعدامات جماعية على مسمع الناس ، بل ومصدر ترحيب وبهجة بين الناس كبيرهم وصغيرهم[٧٥].ويتركز الجزء الثالث من الرواية على هذه النقطة تحديدا ،حيث اعتقال ونستون واخضاعه لسلسلة من التعذيب والاستجوابات وإعادة تهذيب سلوكه وتقويمه مرة ثانية –وفق رؤية الحزب–ومن ثم الافراج عنه، ومن ثم قتله في الشارع.

٩-**الإبقاء على وجود عدو:**

في هذه المدينة الديستوبية لا بد من وجود عدو طوال الوقت حتى ولو كان عدوا وهميا ، يوجه إليه انفعالات الشعب ،ويشغلهم طوال الوقت عن قلة الحصص وعن سوء الخدمات، بل وتلقي عليه السلطة كل أسباب الفشل .

وفي أوقيانيا ابتكر الحزب وسيلة فعالة لتوجيه غضب أعضاء الحزب وهو ما أسموه(دقيقتي الكراهية) ففي دقيقتي الكراهية يعرض يوميا على أعضاء الحزب صورة من صور أعداء الحزب ،وغالبا ما يكون (غولدشتاين) موجودا فيها ، وهو كان عضوا فاعلا في الحزب ومكانته تضاهي مكانة الأخ الكبير، "ولكنه تآمر على الحزب وتورط في نشاطات معادية للثورة فحكم عليه بالموت ، لكنه تمكن من الهرب في ظروف غامضة واختفى عن الأنظار(..) كان غولدشتاين أول خائن للثورة وأول من سعى إلى تشويه الصورة المشرفة للحزب، وكل الجرائم وكل الخيانات والأعمال التخريبية والهرطقة والانحراف عن مبادئ الحزب، كانت نتيجة مباشرة لتعاليمه ،وهو مازال يعيش في مكان ما يدبر المكائد ،ربما يكون في مكان ما وراء البحار.."[٧٦]

وكان يرافق صورة غولدشتاين المعروضة على الشاشة جحافل جرارة من جنود أوراسيا كإيحاء بأن مصير من يسمع لغولدشتاين سيكون احتلال من أوراسيا ، العدو الآخر الذي تعاديه الدولة ،والذي تغير فجأة في (أسبوع الكراهية)وأصبح أستاسيا . وأسبوع الكراهية ذاك يعد له إعدادات ضخمة ويجمع له تبرعات كبيرة. وكانت هذه الوسائل ناجحة جدا مع الشعب وأعضاء الحزب، فما إن تبدأ فعاليات الكراهية حتى تجد الصرخات الغاضبة المتفجرة من الحضور قد انطلقت ، وكانت"نشوة من الخوف والرغبة في القتل والانتقام والتعذيب وتهشيم الوجوه بالمطرقة كانت تتملك الحضور وتسري في أوصالهم وكأنها تيار كهربي يدفع بالمرء رغما عنه للصراخ والصياح كمن أصابه مس من الجنون."[٧٧]

١٠- **الفقر:**

تعلن وزارة الوفرة دائما أن حصص الأفراد من السلع تزيد وأن الإنتاج أصبح أحسن بكثير ،ولكن الواقع غير ذلك تماما، فالشعب يعيش في فقر مدقع والبيوت متهالكة ،وتم استبدال الكثير من الأشياء والسلع ببدائل أقل منها ،مثل استبدال السكر بالسكرين، واستبدال القهوة الجيدة بقهوة النصر وكذلك الشاي، بل إن هناك أنواعا من الفواكه والخضروات لم تعد موجودة مثل الليمون. وتم تخفيض بعض الحصص مثل حصص الفرد من التبغ ومن الشيكولاته . ورغم ذلك فهناك مسيرات شكر من عمال المصانع ومن الشعب للحياة الجديدة السعيدة التي وفرها لهم الأخ الكبير . رغم البيوت المتهالكة الآيلة للسقوط التي يعيشون فيها،ورغم الأحذية البالية والثياب المهلهلة، وحالات الجوع وسوء التغذية .[٧٨] وعلى الجانب الآخر تجد أن هذه الأشياء التي حرم منها العامة وأعضاء الحزب كذلك هي متوفرة لقادة الحزب ،يستمتعون بها ويستأثرون بها دونا عن غيرهم.

هذه كانت أهم المظاهر الديستوبية في رواية (١٩٨٤)لجورج أورويل ، والتي سنلحظ أن كثير منها سمات مشتركة بين الروايات الديستوبية ،كما سنلحظ تأثير هذه الرواية في العديد من الروايات اللاحقة مما يوحي باستمرار أيديولوجية جورج أورويل وامتدادها عبر العصور.

****رواية مزرعة الحيوان:**

بطريقة تختلف عن معظم الروايات يعرض جورج أورويل من خلال مزرعة الحيوان الفساد في الحكم وفي المدن والتحولات الحادثة للشعوب وللحكام على حد سواء خاصة بعد قيام الثورات.

مزرعة الحيوان رواية أبطالها الحيوانات المجني عليهم من قبل صاحب المزرعة "السيد جونز" فهو يمثل بالنسبة لهم الطاغية والمستبد ،وغايتهم التخلص منه وحكم أنفسهم بأنفسهم. فعلى لسان العجوز ميجر الذي بث فيهم روح الثورة قبيل وفاته يقول لهم: "أيها الأصدقاء ..لم يعد في العمر متسع من

الوقت، ولا أظن أن الزمن سيمهلني مدة أطول بينكم قبل أن توافيني المنية ، وأشعر أن من واجبي أن أترك فيكم الحكمة التي اكتسبتها من تجارب حياتي الطويلة ويمكنني القول :إني فهمت طبيعة الحياة على هذه الأرض بعد أن أمضيت الأيام الأخيرة في مربضي وحيدا أفكر في مغزاها عن هذا الموضوع يا أصدقائي سأتحدث إليكم : دعونا الآن نتساءل عن معنى حياتنا هذه. دعونا نواجه الحقيقة.إن حياتنا تعيسة ومستغلة وقصيرة. إننا نشقى ونعمل بجد ونطعم ما يسد الرمق ويحفظ الأرواح في الجسد ليس إلا وحالما تنتهي الحاجة إلينا سواء بسبب العجز أو المرض نذبح بوحشية .ثم قال وهو يهز رأسه :لا أعتقد يا أصدقاء أن هناك حيوانا يعرف للسعادة طعما أو للرفاهية معنى."[٧٩]

ولذا اتفقوا على أن الانسان هو عدوهم الوحيد ،وأضحت الظروف مواتية للثورة على السيد جونز ،وبالفعل أطاحوا به وحكموا المزرعة بأنفسهم ،ومن هنا تأتي نقطة التحول في حياتهم وفي نظام المزرعة ،وظهرت بوادر الإصلاح والمساواة بين الحيوانات . وكتبت سبع وصايا على الجدران والتي اعتبرت ميثاقا للحكم وللحياة في المزرعة وهي:

١-كل من يمشي على قدمين فهو عدو.

٢-كل من يمشي على أربع أقدام أوله أجنحة هو صديق.

٣-يحظر على الحيوان ارتداء الملابس.

٤-يحظر على الحيوان النوم على السرير.

٥-يحظر على الحيوان تعاطي الخمر.

٦-لا يجوز لحيوان قتل حيوان آخر.

٧-كل الحيوانات متساوية في الحقوق والواجبات.

ولقد سارت الأمور على مايرام لفترة من الوقت ، فكان هناك اجتماع دائم للتشاور في أمور المزرعة وكان هناك رخاء ورفاهية وحرية التمتع بأوقات الفراغ. ولكن بعد وقت قليل ظهرت مظاهر وعلامات تنبئ بقيام مدينة فاسدة منها:

١ _ تكريس الطبقية واستئثار الطبقة الحاكمة بالمميزات المختلفة :

تولت الخنازير رئاسة المزرعة وكانت في البداية تعطي الحق لنفسها لاتخاذ ما تراه مناسبا من القررات ولكن بعد سماع وجهات نظر الحيوانات الأخرى ، ومع الوقت ألغت الاجتماعات وانفردت الخنازير بالقررات.

وأعطت لنفسها مميزات عن بقية الحيوانات ، وذلك مثل الاستئثار بحليب الأبقار والتفاح ، وعندما تعترض الحيوانات الأخرى يأتي دور الخطاب المزيف وتدليس الحقائق وذلك من خلال متحدثها الرسمي (سكويلر) فيقول مثلا:

"آمل ألا يظن أحدكم أن ما قمنا به كان بدافع حب الذات والترفع، فالحقيقة أن ما بيننا نحن معشر الخنازير من يكره التفاح والحليب ،وأنا شخصيا أحد هؤلاء . ولكن غايتنا الوحيدة هي الحفاظ على صحتنا ، فقد أثبت العلماء أن التفاح والحليب يحتويان على مواد ضرورية للغاية لحياة الخنازير.

وأضاف قائلا: إن الخنازير ،كما تعلمون تضطلع بالمهام العقلية في المزرعة ، فإدارة العمل وتنظيمه يعتمدان علينا ...نحن نسهر الليالي ولا ندخر جهدا من أجل راحتكم.. لذلك السبب يا رفاق تشرب الحليب ونأكل التفاح."[٨٠]

ويستند ذلك الخطاب المزيف على أمرين:

الأول: إثارة رعب الحيوانات من عودة الطاغية مرة أخرى وإقناعهم بأن وضعهم الآن أفضل بكثير من أيام جونز والخنازير هي الخيار الأمثل للحيوانات. لذا عليهم القبول بكل ما تفعله الخنازير. فـ"إذا كان ثمة شيء يحظى بإجماع الحيوانات على اختلاف أجناسها : فهو بغضها لجونز ، وحين وضع الأمر على هذا النحو ،بات واضحا أن مصلحة المزرعة تقتضي الحفاظ على صحة الخنازير . واتفقت الحيوانات من دون مزيد من النقاش على تخصيص محصول التفاح والحليب كله لطعام الخنازير فقط."[٨١]

إذن باتت جملة "عودة جونز"هي كلمة السر التي تفتح كل الأبوب ، والتي بها تتم الموافقة على كثير من قرارات الخنازير المجحفة للحيوانات الأخرى. وهنا يتم الاعتماد على (العامل النفسي)والذاكرة النفسية للحيوانات

السابقة وتضخيمها وإيهامهم أن وضعهم السابق كان أسوأ بكثير وأن ما وصلوا إليه هو الأفضل ،وبمعنى آخر ليس لديهم إلا اختيارين (جونز أو الخنازير)،لذا فأي اعتراض على قرارتهم ستؤدي إلى نتائج وخيمة ، وبذلك هم لا يناقشون القرار نفسه أو الحجة ، ولكنهم يلقون إليهم بما يشتت انتباههم ، والذي يعلمون جيدا مدى أثره السلبي عليهم فيتكئون على الخبرات السيئة السابقة ويستدعون الانفعالات والمشاعر المؤلمة التي مروا بها من قبل ، وبذلك يصرفوا انتباههم عن الموضوع الرئيس محل النقاش والجدال الحالي.

أما النقطة الثانية في الخطاب المزيف هو إيهامهم بأن الخنازير تعمل لصالحهم، وأن الخنزير القائد (نابولين) يضحي من أجلهم. يقول سكويلر معللاً مجموعة من القرارات التي اتخذها نابولين :"وبعد أن هدأت الحيوانات واستوعبت حقيقة ما جرى أرسل سكويلر لشرح الترتيبات الجديدة فقال:-أيها الرفاق ،إنني على ثقة أنكم تقدرون التضحيات التي يبذلها الرفيق نابولين لتحمل هذا العبء الإضافي بنفسه.أرجو ألا يخطر ببال أحدكم أن الزعامة متعة ،بل على العكس إنها مسئولية ثقيلة وصعبة للغاية. وبصوت متهدج تابع حديثه:

-لا أحد أكثر إيمانًا بمبدأ المساواة بين الحيوانات من الرفيق نابولين .. كان بوده أن يجعلكم تتدبرون شئونكم بأنفسكم وتتخذون ما يناسبكم من القرارات ، ولكنه يخشى عليكم فقد تتخذون قرارات خاطئة لا تصلح لكم."[٨٢]

وهذا الخطاب المزيف متكرر كثيرا في الواقع ،لذا نجد صداه في الروايات الديستوبية ، وتظهر لنا بوضوح في رواية (ممر الفئران)لأحمد خالد توفيق كما سنرى لاحقا. من خلال خطاب القومندان للشعب، والذي يوحي إليهم بأنه يخاف عليهم ويعمل لمصلحتهم.

٢-**طمس التاريخ:**

من أهم المظاهر الثابتة للمدن الديستوبية والتي يلعب بها الحكام ويركنوا إليها هي(قلب الحقائق التاريخية ، وتزييفها في عقول العامة، وبناء أخبار أخرى تساعدهم في تحقيق أغراضهم ومآربهم .وهذا ما نجده في مزرعة الحيوان ،حيث

حرصت الخنازير على تشويه صورة سنوبول(الخنزير المفكر)الذي أراد بناء طاحونة تساعد المزرعة في زيادة الإنتاج بأقل جهد ، فقام نابولين بنفيه من المزرعة بعد محاربته فكرة بناء الطاحونة. وبعد إزاحته من طريقه وتشويه صورته أمام بقية الحيوانات، نسب فكرة الطاحونة لنفسه وبدأ في بناءها. كما يتضح من المقاطع السردية التالية:

"نفترض مثلا أنكم وافقتم الخائن سنوبول في هذيانه لبناء الطاحونة، فإلام سيئول حالكم؟ إنه كما تعلمون ليس سوى مجرم أراد خداعكم!

واعترض أحد الحيوانات قائلًا:

–لكنه قاتل بشجاعة في معركة حظيرة البقر.

ورد سكويلر:

–الشجاعة وحدها لا تكفي.. الولاء والطاعة أهم من ذلك. أما بالنسبة لمعركة حظيرة البقر فسيأتي الوقت المناسب للكشف عن دور سنوبول المبالغ فيه .إننا في عصر النظام يارفاق. فالانضباط الصارم هو شعار اليوم. زلة طفيفة وسيدوس عدونا على أعناقنا وبالتأكيد أنتم لا ترغبون في عودة جونز (....)عصر العبودية والذل."[٨٣]

وقال أيضًا:"لم يكن الرفيق نابولين في الواقع معارضًا لفكرة إنشاء طاحونة الهواء،بل على العكس كانت من بنات أفكاره وهو الذي دعا في البداية إلى إقامتها ،أما المخططات التي رسمت في الحظيرة الصغيرة فإنها سرقت من مجموعة أوراق الرفيق نابولين .فالطاحونة في الواقع هي من وحي اختراعه.

وانبرى أحد الحيوانات متسائلاً:

–ولكن لماذا عارض بقوة إنشائها؟

نظر سكويلر إليه بخبث ثم نقل عينيه إلى الوجوه أمامه ورد متباهيًا:

ذلك يارفاق وجه من أوجه البراعة السياسية والحنكة التي يتمتع بها الرفيق نابولين ،فاعترض على الطاحونة ليس سوى مناورة ذكية للإطاحة بسنوبول .ذلك المخلوق الخطير ذو التأثير السيء."[٨٤]

*وقديما حرموا التعامل مع البشر ،ولكن بعد فترة حينما أرادوا التعامل معهم زيفوا الماضي فقالوا:"ألمح في حديثه إلى أن القرار الذي يحرم العلاقات التجارية مع الإنسان لا وجود له أصلًا ،وإنما هو مجرد أكاذيب من صنع خيال سنوبول."[٨٥]

وبعد ذلك كلما حدثت أي حادثة سيئة يتم توجيه أصابع الاتهام إلى سنوبول : "جرت العادة أنه كلما تضرر شيء أو تعطل توجه أصابع الاتهام إلى

سنوبول : فإذا كسر زجاج نافذة أو سُد مجرى الصرف الصحي ،فمن المؤكد أن أحدًا سيدعي أن سنوبول جاء أثناء الليل وفعل ذلك وعندما فُقد مفتاح بيت المونة كانت الحيوانات كلها مقتنعة أن سنوبول هو الذي رمى المفتاح في البئر.ومما يثير الاستغراب أن التهمة لم ترفع عن سنوبول حتى بعد العثور على المفتاح المفقود تحت كيس الحبوب .كلما ادعت الأبقار كافة أن سنوبول تسلل إلى مرابضها وحلبها أثناء نومها."[٨٦]

ومع الأيام أصبح سنوبول عميلًا لجونز منذ البداية ..كان عميله السري طوال الوقت ،فقد أثبتت الوثائق التي كشف النقاب عنها مؤخرًا والتي تركها خلفه،وأكدت بما لايدع مجالا للشك أنه خائن بني جنسه."[٨٧]

وأوهموا الحيوانات أن كل ما كان يفعله في معركة حظيرة البقر ما هو إلا خطة ،حتى إصابته في المعركة كان من ضمن الخطة.

٣-**التحول القيمي:**

من المحاور الهامة التي ترتكز عليها الرواية هو كيفية التحول القيمي التدريجي،فيتحول الإنسان/الحيوان من كونه مظلوم إلى ظالم.وهي نقطة هامة ترتكز عليها بعض الروايات الديستوبية .ونلحظها نقطة اشتراك مثلا عند بعض الروايات العربية محل الدراسة مثل رواية ممر الفئران لأحمد خالد توفيق

تحولت الخنازير تدريجيًا من(مظلومة) تبحث عن الخلاص الذي وجدته من خلال الثورة والإطاحة بجونز إلى ظالمة تفعل مثلما فعل جونز بل

وأسوأ.وتشبهت به حتى أنهم سكنوا مسكنه.كما يظهر في المقطع السردي التالي:"في غضون ذلك نقلت الخنازير فجأة مقر إقامتها إلى بيت المزرعة(مسكن جونز سابقًا) وأرسل سكويلر لإقناع الحيوانات التي أبدت مرة أخرى استياءها بأن الضرورة تحتم إقامة الخنازير وهي العقل المدبر للمزرعة في مكان هادئ للعمل.وليس ثمة مكان يليق بمقام "القائد"ويحفظ له كرامته أفضل من بيت المزرعة بدلًا من الزريبة القذرة التي كان يعيش فيها مع بقية الخنازير (....)وبعد أيام آل إلى مسامع الحيوانات أن الخنازير تأكل طعامها في المطبخ وتستعمل غرف الجلوس للترفيه وأخذت تنام على الأسرة..."[٨٨]

وكذلك:"أصبح ظهور نابولين نادرًا ،وكان يمضي جل وقته في بيت المزرعة التي تقوم على حراسة أبوابه كلاب ضواري،وإذا خرج فإنه يخرج بمظهر احتفالي مهيب..تحيط به ستة من كلاب الحراسة الخاصة تصدر زمجرة مخيفة كزمجرة الرعد كلما حاول أحد الاقتراب منه وأصبح يتخلف عن اجتماعات أيام الأحد واكتفى بإصدار الأوامر من خلال أحد الخنازير..سكويلر عادة."[٨٩]

وبدأ يخرق كل الوصايا السبعة التي اتفقوا عليها إبان الثورة.وكان أهمها أنه قتل كل الحيوانات التي أبدت اعتراضا على قراراته في محفل إعلامي كبير ،وذلك بعد اعترافها جميعا بأن ما فعلته كان بإيعاز من سنوبول ،حتى "الدجاجات الثلاث اللاتي قُدن محاولة العصيان في قضية البيض اعترفن بأن سنوبول ظهر لها في المنام وحرضها على عصيان أوامر نابولين."[٩٠] وكان لابد من هذا المحفل الإعلامي الكبير حتى يتعظ البقية ويلقي الرعب في قلوبهم.[٩١]

وقد خلع نابولين على نفسه العديد من الألقاب وكذلك أطلقت عليه بقية الحيوانات ألقابًا أخرى،فمنها:"قائدنا العظيم الرفيق نابولين ، والد جميع الحيوانات،مرعب البشر،حامي حظيرة الأغنام،صديق فراخ البط." كما خلع على نفسه أوسمة كثيرة.

ولقد طال هذا الظلم حصص الحيوانات من الطعام والتي خفضت مرات متوالية باستثناء الكلاب والخنازير .فالخنازير كانت الطبقة الأرقى في مزرعة الحيوانات،وأصبح لها مع الوقت امتيازات أخرى مختلفة عن بقية الحيوانات.إلى أن وصل الأمر إلى "سن قانون ينص على تنحي الحيوانات الأخرى جانبًا عندما تلتقي على الطريق بخنزير ،ومنحت الخنازير أيضًا بغض النظر عن درجتها ميزة ربط أشرطة خضراء على ذيولها في أيام الأحد."[٩٢]

ومع مرور الأيام ازدهر حال المزرعة وبدت"أكثر غنى غير أن الرخاء وترف العيش لم يصب حياة الحيوانات باستثناء الخنازير والكلاب."[٩٣]

فالسعادة الحقيقية في نظر نابولين تكمن في جهد العمل وشظف العيش.

وتنتهي الرواية بتشبه الخنازير التام بالإنسان ،فقد أتقنوا الوقوف على قدمين ،ولم يعد غريبًا رؤيتهم وهم يرتدون ملابس جونز أو مشاهدة نابولين وهو يضع في فمه غليونا ويرتدي معطفا أسودا وبنطلونا قصيرا وحذاءًا من الجلد. بل حدث أكثر من ذلك فقد اجتمع الخنازير مع البشر ،وأصبح البشر يقيمون الصداقات معهم ويقتدون بهم لإقامتهم نموذجًا ناجحًا في مزرعتهم. وأخذوا يهنئون الخنازير على نظام الحصص المنخفضة وساعات العمل الطويلة والمعاملة الصارمة التي تتبناها في إدارة شئون مزرعة الحيوان. وتحولت "مزرعة الحيوان" إلى "ضيعة الخنازير" وأصبح من الصعب التمييز بينهم وبين الإنسان.

٤-الطاعة العمياء:

لا تناقش "مزرعة الحيوان" فقط سيكولوجية الحكام وظلمهم وتحولاتهم واستراتيجياتهم في التعامل مع الجماهير\المحكومين،ولكنها تعرض أيضا(سيكولوجية الجماهير) وتناقش سمة رئيسة موجودة في كثير من الشعوب وهي الطاعة العمياء للحاكم .ففي الرواية يصدق كل ما يقوله (نابولين) وكل شيء يأتي به فهو حق. ومهما قاسوا وعانوا من شظف العيش ،فلا مجال للتمرد أو الشكوى أو التذمر لذا نجد الرواية قائمة على عرض(شخصيات

حيوانية)مختلفة ،فمنها من يجابه كل مشاق الحياة بالعمل الدائم وبجهد أكبر مثل الحصان بوكسر الذي ظل يعمل دائما في كل الظروف إلى أن مرض وحينها سُلِمَ لجزار الخيول .ومنها أيضًا الحكيم الذي لا يكثر من الكلام ولا يُعلّق على كلام أحد.أما القلة من اليافعين الذين اعترضوا على بعض القرارات فقد أُعدِموا.

إذن هذه الرواية لا تلقي باللائمة على الحكام فقط فيما تؤول إليه الأوضاع ،بل أيضًا على الشعوب التي ترضى بالظلم دون أن تنطق ،وتصدِّق كل ما يقال لها بدون تفكير.

وهذه الفكرة نراها حاضرة في روايتي أحمد خالد توفيق "يوتوبيا" و "ممر الفئران" بل وفي العديد من الروايات الديستوبية. وذلك يذكرنا بالدراسة التي أجراها عالم النفس الاجتماعي ستانلي ميلغرام(١٩٣٣_١٩٨٤)التي أجراها عن الانصياع والإذعان للسلطات والتي قدَّمها خلال الستينيات من القرن الماضي خلال عمله في جامعة ييل ،وأسفرت عن نتائج هامة تتعلق بالطاعة والانصياع.فالبشر – وفقًا للدراسة– يميلون للطاعة والخنوع واتباع ما يصدر عن السلطة بمختلف مظاهرها.

أثرت هذه الروايات ومازالت تؤثر على جمهور كبير من القراء العرب وكذلك المبدعين ،فنفس هذه المظاهر الديستوبية سنجدها متداولة في الروايات العربية ،وقد يكون ذلك ناتج من التأثر بهذه الروايات وخاصة روايات أورويل، وقد يكون كما أشرنا سابقاناتجا عن كون هذه الأفكار والمظاهر من المشترك الإنساني ،فهي مظاهر عامة تشترك فيها كافة الأنظمة الشمولية ،وكذلك كافة الشعوب التي تعيش تحت طائلة تلك الأنظمة ،وإنما الاختلاف يكمن دائما في النسبة فقد تظهر صفة أكثر من غيرها .

(٣)

التجربة العربية للسرد الديستوبي

خطى مجموعة من الأدباء المعاصرين خطوات واضحة في تحقيق تقدم في السرد الديستوبي وفي إيجاد هذا النمط الروائي بعد أن كان مهملا تماما في الروايات العربية، صحيح أنه قد يوجد عناصر للمدن الديستوبية أو مظاهر لها في بعض الروايات التقليدية ،ولكن ذلك لم يرتق نهائيا إلى مستوى الروايات الديستوبية الكاملة شبيهة بقريناتها الموجودة في الغرب. وفي اللحظات التي نكتب فيها هذا البحث نلاحظ ازدياد متلاحق في أعداد الشباب المقبلين على هذا النمط الأدبي وذلك يعكس حالة اليأس التي أضحت مسيطرة على الشباب من الظروف الاجتماعية والسياسية التي تعيشها المجتمعات العربية .وفي الحقيقة "إن ازدياد الروايات الديستوبية يشير إلى أن أدب الديستوبيا اقترب من أن يكون ظاهرة عربية بامتياز، وبالرغم من أن هذا الأدب قديم إلى حد ما في الغرب ،إلا أنه يعتبر حديثا في العالم العربي."[٩٤]

ولقد اخترت مجموعة من الروايات عينات دالة على هذه الديستوبيا لمعرفة أهم المظاهر الديستوبية فيها ، وهذه الروايات بعضها كان له السبق في الوطن العربي في إرساء هذا النمط والتجريب فيه وذلك يتمثل خاصة مع الكاتب(أحمد خالد توفيق)،ومن هذه الروايات من مثل الديستوبيا في أقسى معنى لها مثل رواية عطارد للكاتب المصري (محمد ربيع) وهناك من اخترناه بناء على القراءات الواسعة جدا من الشباب له مثل الكاتب عمرو عبد الحميد. وهناك العديد والعديد من الروايات العربية الأخرى لم تشملها الدراسة.

(٣/١)يوتوبيا:** يعد الكاتب المصري الدكتور أحمد خالد توفيق من أشهر كتاب الخيال العلمي في العصر الحديث،ومن أكثر الكتاب المؤثرين في الشباب العربي ،ويذاع عنه أنه من حبب الشباب في القراءة وجعلهم يقرأون ،وأطلق عليه الشباب لقب(العراب)،ولكن للأسف لم ينتبه إليه النقاد وكذا الكثير من المثقفين إلا بعد وفاته. وقد اشتهر رحمه الله أيضًا بكتاباته الديستوبية ،ويمكننا

القول أنه من أوائل من كتب رواية ديستوبية كاملة في الأدب العربي ،ألا وهي رواية "**يوتوبيا**" ،ثم تلتها رواية أخرى وهي "**ممر الفئران**" وهما روايتان استشرافيتان تلامسان الواقع الاجتماعي والسياسي للبلاد العربية في تلك الآونة وتستشرف نتائج هذه الأوضاع من خلال سرد تخييلي يمتزج فيه الخيال مع الواقع .وكم هناك من أحداث كانت صعبة الحدوث في وقتها وكانت خيالا بحتا وإذا بها تتحول لحقيقة دامغة.[٩٥]

نشر أحمد خالد توفيق يوتوبياه عام٢٠٠٨م ،وفيها يمارس الكاتب على القارئ من خلال العنوان خداعا عقليا حيث يظن القارئ أنه مقبل على رواية تتحدث عن المدينة الفاضلة المثالية والتي تحل مشكلاته الراهنة ،ويظن أن هذا الكاتب قد وقع في إثم التفاؤل ،ولديه من المعلومات ما خفي عن المجتمع .ويظل هكذا حتى مع العتبة الداخلية الأولى التي يوضح فيها نُبذة عن يوتوبياه والتي يقول فيها:"يوتوبيا المذكورة هنا موضع تخيلي ،وكذلك الشخصيات التي تعيش فيها ومن حولها ،وإن كان المؤلف يدرك يقينًا أن هذا المكان سيكون موجودا عما قريب،أي تشابه للمكان والشخصيات مع أماكن وشخصيات (في الواقع الحالي)هو محض مصادفة غير مقصودة."[٩٦]

ولكن بمجرد أن يقرأ القارئ اقتباس الكاتب للفيلسوف لبرتولد بريخت القائل فيه:حقا إنني أعيش في زمن أسود :

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها
الجبهة الصافية تفضح الخيانة .
والذي مازال يضحك...
لم يسمع بعد النبأ الرهيب..
أي زمن هذا."[٩٧]

حينها يعلم القارئ أن كاتبه قد كسر أفق توقعه وأوهمه أنه مقدم على يوتوبيا بينما هو مقدم على ديستوبيا وهذا العنوان يؤكد ما سعينا إلى إثباته في بداية البحث من كون ما يمثل بالنسبة لأشخاص يوتوبيا هو بالنسبة للآخرين

ديستوبيا هذا من جهة، ومن جهة أخرى مثل هذا العنوان نوعا من السخرية المقصودة بهذا المجتمع الذي يحيك يوتوبيا لنفسه ،بينما يقبع البقية من العامة في ديستوبيا مقيتة ،وهذا ما يتضح لنا عن قراءة الرواية .

يبني الكاتب روايته على المفارقة والتضاد بين اليوتوبيا النخبوية والديستوبيا، لذا ففصول روايته كلها موزعة أجزاء خمسة يحمل (الجزء الأول والثالث والخامس)عنوان (الصياد)بينما يحمل كل من الجزء(الثاني والرابع)عنوان(الفريسة).

اليوتوبيا هي "المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه..يمكنك أن ترى معي معالمها...البوابات العملاقة ..السلك المكهرب..دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة "سيفكو" التي يتكون أكثر العاملين فيها من مارينز متقاعدين..أحيانا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل من دون تصريح ،فتلاحقه طائرة الهليوكبتر وتقتله(...)بعد هذا منطقة الحدائق..منطقة المدارس المخصصة لإقناع الآباء أنهم ما زالوا كذلك، منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي ،البعض هنا مازال مصرا على أن يخاطب ذاتا عليا لايراها ،ولكن جيل الشباب قد تخلص من هذه العادة على كل حال."[٩٨]

الرواية قائمة على استشراف المستقبل ،وفيه تخيل الكاتب كيف ستكون مصر عام٢٠٢٠م وهو العام الذي نعيشه الآن، والكاتب لا يتوقع في هذه الرواية إلا الأسوأ وذلك انطلاقا من الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتردية في البلاد، ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من توقعاته قد حدثت بالفعل وتحققت ،فكم هناك من أماكن داخل مصر تعتبر يوتوبيا لمن يعيش في داخلها ،فهي مقصورة على الأغنياء وتحوي كل ما هو مثالي بينما يقبع بقية المجتمع من الطبقات المتوسطة والفقيرة في بقية بقاع الوطن والتي تمثل الكثير منها ديستوبيا . ولا يقتصر الأمر على هاتين الروايتين فحسب بل يتعدى الأمر

لكثير من مقالات الكاتب ورواياته ،فهو صاحب رؤية استشرافية قائمة على محاولات قراءة الواقع وتحليله بالكثير من الموضوعية.

وقد اعتمد الكاتب في روايته في عدد من المواضع على ذكر احصائيات وتقارير عن ظواهر متفشية في البلاد كان من الممكن لو انتبه إليها أصحاب الشأن وعالجوها ألا تتطور وتتحول إلى كارثة تجعل الحياة في مصر جحيما.

ومن أمثلة الموضوعات التي اعتمد الكاتب فيها على ذكر احصائيات وتقارير:

١_الإعلام ودوره في المجتمع: تستخدم السلطات الإعلام كوسيلة رئيسة للتعبير عن رؤيتهم ،ومن خلال النظر للإعلام ولحاله تستطيع بكل سهولة معرفة طبيعة الدولة والسلطة ، فإن سعت السلطة لتهميش دور الإعلام وإفقاده الدور الرئيس المنوط بها القيام به فحينها نكون أمام نظام شمولي ديكتاتوري يسعى لفرض السيطرة ولأحادية الصوت والرأي والرؤية،أما إن كان إعلاما حرا يحوي الآراء المختلفة والرؤى المتعددة فحينها نحن أمام نظام ديموقراطي به حرية للرأي يرحب بكافة الاتجاهات والرؤى . وقد ذكر الكاتب هذه الرؤية في روايته واعتمد فيها على التقارير ،فناقش تهميش دور الإعلام والصحافة بشكل كبير وإفقادهم دورهم المرتكز على تنمية الوعي وتسليط الضوء على القضايا المهمة ومعالجتها ونقدها بشكل حقيقي، وتحول الإعلام كما يقول الكاتب إلى طرح موضوعات تتعلق بالخرافات ونظريات المؤامرة وشكليات الدين والجنس، إلى اصطفافهم لجانب الحكام وتأييد كل ما يأتون به، يقول الكاتب عن الإعلام في يوتوبيا:

"الصحافة أصبحت تنقسم إلى قسمين ،قسم عبارة عن خليط عجيب من الجنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة.."[٩٩]

وقسم آخر عبارة عن "رسائل حب موجهة للحكام ..هذه يصدرها قوم من يوتوبيا وسواها كانوا منا ثم سمح لهم الحكام بأن يعيشوا هناك مفعمين بعرفان بالجميل وامتنان وتهيب يبلغ درجة العبادة ..هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفا مشويا ينز منه الدهن لهذا يكتبون كلاما لا يعني أي طرف ولا

أحد يقرؤه إلا الحكام ،بالواقع لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون له. هذه المقالات نوع من بصبصة بذيل فكري. فيما مضى كانت هناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب ،ثم فهموا أن تدخلهم في رسائل الحب هذه قلة ذوق كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك."[١٠٠]

٢_جرائم العنف ضد النساء: وظف الكاتب المعلومات التي كشفها المرصد الصحفي بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان حيث ذكر أنه كشف عن ارتكاب (١٧٢)جريمة عنف ضد النساء وذلك خلال الفترة من ٣٠يونيو حتى ٢٥ديسمبر ٢٠٠٥م،وذكر دوافع ارتكاب الجرائم والتوزيع الجغرافي لهذه الجرائم والأدوات المستخدمة ومستويات من قاموا بهذه الجرائم.[١٠١]

ونفذ الكاتب من هذه المعلومات إلى الواقع فربط بينها وبين الأحداث التي حدثت في المجتمع آنذاك وكذلك ربطها بطبيعة الشعب،وكذلك بإهمال كل النذر الأولى التي تسببت في الكارثة فيقول:"الأرقام لاتكذب ...من بين كل مائة جريمة عنف ضد النساء تقتل ٨٥إمرأة من بين كل مائة امرأة قتيلة هناك أربع يذبحن كالشياه واثنتان تحرقان .

قرنيتي الحبيبة وحلم ما بعد الجنس.

أنا رأيت كل شيء يتهدم .أنذرتهم ألف مرة ،لكنهم لم يصدقوا أو صدقوا ولم يبالوا .أحيانا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له .شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء."[١٠٢]

وهذا المقطع السردي من أهم المرتكزات التي تدور حوله الرواية والهدف الرئيس الذي كتب الكاتب لأجله الرواية وهو تحذير مما ستؤول إليه الأوضاع إن استمر الحال هكذا وإن استمر التغافل وفقدان الهمم لذلك نجده يقول في المقطع التالي والذي اقتبس جزءًا منه على صفحة غلاف الرواية :"هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب ..لقد أنذرتكم ألف مرة ..حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أورويل وهـ.ج ويلز لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة

وتنامون..الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي ،وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن تعرفون ..غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم ،فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته ..لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيرا حتى لو أنني ألعنكم يا بلهاء ..ألعنكم .لكن ما أثار رعبي أنهم لايبالون على الإطلاق ..

لا يهتمون البتة ..إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه..."[١٠٣]

٣_ذوبان الطبقة الوسطى وتحولها لطبقة فقيرة:

من أهم المرتكزات الواقعية التي يرتكز عليها الكاتب في بناء روايته وفي تحليلاته هي ذوبان الطبقة الوسطى في المجتمع وتحول المجتمع لشعبين فقط بتعبير الأبنودي ،الأغنياء والفقراء .واعتمد الكاتب على بعض الاحصائيات الخاصة بذلك فيقول: "في أوائل القرن الحادي والعشرين ،وفي آخر إحصاء أمكن عمله ،كان هناك ٣٥مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر ،وكذا كانت البطالة التي وصلت إلى أعلى معدلاتها العالمية (١٠ملايين عاطل) لاحظ أن ٧٨%من مرتكبي الاغتصاب عاطلون ...أي أن جريمة الاغتصاب هي في الحقيقة اغتصاب للمجتمع ..دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجتمع دور قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية ،إنها تبطئ التفاعل ولولاها لانفجر المفاعل ...مجتمع بلا طبقة متوسطة هو مجتمع مؤهل للانفجار .وهذا هو ما حدث بالضبط ...لكن الانفجار لم يقض على الطبقة الثرية .لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين.فقط أدركت الطبقة الثرية أنه لاحياة لها مالم تنعزل بالكامل وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجي (قناع الموت الأحمر) "[١٠٤]

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب يحاول مرارا تحليل طبيعة الشخصية المصرية ،وأثر السياسات المتبعة معه على تغير شخصيته وذلك في أكثر من مقطع سردي منها على سبيل المثال :

–"الشخصية المصرية قد لاقت الكثير من المرمطة في المائة عام الأخيرة حتى صارت كزوجة عاملها زوجها بتوحش عدة أعوام ،ومن ثم أصبحت هي ذاتها أقرب إلى الوحشية والشراسة .وكلما زاد الجهل قلت سيطرة قشرة المخ على السلوك، وهذا يجعل الجرائم التي ترتكبها الطبقات الدنيا حيوانية بالمعنى الحرفي للكلمة. وفي النهاية يقف القاتل ناظرا لعدسات الصحافة النهمة بعينين غبيتين زائغتين ويكتفي بترديد(أصل الشيطان وزني)"[١٠٥]

وفي مقطع حواري آخر شديد القسوة يقول: "في الماضي عندما كنت أتفلسف قلت لأحد أصدقائي :لقد جمع بلفور اليهود في وطن واحد وعدهم به ،وبهذا أراح العالم منهم .بدت عليه الدهشة وهتف:

_ياسلام..!رجل جمع اليهود في وطن واحد؟

_اعتقادي أن هناك وعدا آخر ..ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملين والأفاقين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض قي وطن قومي واحد هو مصر ،لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة ..لهذا لا تجد في ألمانيا وغدا ..لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقا ..كلهم هنا يا صاحبي.!"[١٠٦]

ويقول أيضا "الصورة التي تريانها كانت موجودة منذ البداية لكن بشكل غير واضح ثم تضخمت شيئا فشيئا ...يصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر ،ثم تأتي اللحظة يحدث فيها الانهيار ..ويبدو لي أن هذا حدث في العشر سنوات الأولى من هذا القرن ...فجأة انهار السد...لم تعد السياحة قادرة على إطعام هذه الأفواه ...إسرائيل فتحت قناتها التي صارت بديلا جاهزا لقناة السويس ...الدول الخليجية نضب بترولها أوتم الاستغناء عنه بعد ظهور (البايرول) وطردت العمالة الوافدة هكذا وجد الاقتصاد عليه عبئا قاصما ،وانعدمت الخدمات للفقراء

لأن الدولة أعفت نفسها تماما من مسئوليتهم وخصخصت كل شيء."[١٠٨] . في كل هذه المواضع السردية وغيرها [١٠٩] ينطلق الكاتب _كما سبق وذكرنا _من الواقع الحالي للبلاد ليستشرف المستقبل، ويعتمد في الصورة الاستشرافية المستقبلية على قطبين ،على تحول المجتمع إلى طبقتين (الأغنياء والفقراء) وذلك تحت مسميات مختلفة.(الأغنياء\اليوتوبيون- الفقراء\الأغيار)

وتأتي قصيدة عبد الرحمن الأبنودي كعلامة متكررة تذكيرية للقارئ من حين لآخر لتؤكد هذا المعنى والتي يقول فيها :

احنا شعبين ..شعبين...شعبين
شوف الأول فين والثاني فين ؟
وأدي الخط ما بين الاثنين بيفوت
أنتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
في ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر
بطن وصدر
والريحة سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولادالكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقة الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت في الحرب.[١١٠]

** يبدأ الكاتب بالشعب الأول\صاحب السلطة\الأغنياء\اليوتيبون ويضع لهم معجمًا لغويًا يمثل من هم وما هي حياتهم وأهدافهم فيقول:

"الإثـارة... الإثم....التعـدي...خرق القواعد.....التحدي.....كسـر التـابو.... المشـــاغبة....المخالفة....الهدم...التوتر...الأدرينـــاين...التغيير...التمرد... الانحلال...الصدمة...التميز...الدهشة .هذا هو اسم اللعبة." هذه الكلمات هي التي يبحث عنها الشباب في يوتوبيا ،فهم متاح لهم كل شيء ،ولكنهم يشعرون

بالملل والرتابة الدائمة،يشعرون بالعبثية والعدمية،لا يجدون لحياتهم أي هدف لذا يبحثون عمن يمكنه أن يعيد هذه الكلمات إلى حياتهم ،يريدون أن يشعروا بالإثارة والدهشة وما إلى ذلك ،لذلك يلجأون إلى (الصيد) صيد الأغيار!!!

يوضح ذلك الكاتب مرارا من خلال (راسم) اليوتيوبي والذي يقول:" في سني الصغيرة نسبيا هذه كونت قناعة لابأس بها هي أنه لا جديد تحت الشمس ولا يوجد واحد يمكن تعلمه بعد هذا.هناك خلل اجتماعي أدى إلى ما نحن ، لكنه خلل يجب أن يستمر كل من يحاول الإصلاح يجازف بأن نفقد كل شيء(...) جربت عقاقير كثيرة جدا نبتاعها من الحراس الأمريكيين ولكن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها مادامت متاحة .ثمة جزء مهم من اللعبة هو التحريم والندرة .أن تتعاطاها خائفا ...تتعاطاها قلقا بصدد الجرعة التالية .عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها ..تصير مملة سوقية."[١١١]

ويبدو ذلك أيضا في حوارات الشباب بين بعضهم البعض ،فحتى الجنس يكون بدافع الملل لا أكثر .

قالت لي لا رين في ضيق: "ألا تفعل شيئا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات ،لقد صار هذا مملا .قلت وأنا أفرد ساقي على المنضدة أمامي :

_ربما كنت شهوانيا كالخنازير ..هذا ليس ذنبي ..إنها الهرمونات .

_ليت الأمر كذلك، لكني بالفعل لا أتصورك تشعر باشتهاء أو رغبة .أنت تفعل هذا بدافع الملل لا أكثر.

قلت بذات اللهجة :ربما كنت ملولا...هذا ليس ذنبي كذلك.

وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية ؟تنام ..تتعاطى المخدرات .تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك ...تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل .تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيا ساديا) لو كنت تعرف طريقة أخرى يمارس بها المرء حياته فلسوف يسعدني أن تقولها ..(...)إنها يوتوبيا حيث يضنيك البحث عن طريقة تزجي بها كل دقيقة من حياتك "[١١٢]

ونتيجة لهذه العبثية والعدمية فالأذواق تغيرت واختلفت عن الماضي ،فالجروح مثلا أصبحت مثيرة ومحببة للإنسان وموضة من موضات العصر. يقول راسم:" أتأكد من أن الجرح على جبيني مفتوح ..أعالج حافته بعناية ليبدو داميا .إن الجروح مثيرة بلا شك ..ظهرت هذه الموضة منذ عامين وصار لها متخصصون .المهم أن يبدو الجرح بشعا قدر الإمكان ويبدو صناعيا كذلك حتى لا يشمئز من يراه..هذا فن حقيقي"[١١٣]

"كانت ماهي قد فرغت من دورتها فانطلقت تلاحق سيارة راسم..على الأرجح ستدمر السيارتان اليوم...لكن المشكلة هي أننا لا نموت ..لا أعني أننا خالدون ..لكننا صرنا أكبر من المرض والحوادث ...الأغيار يمرضون ويذهبون للعلاج في المستشفى فتنقلب بهم السيارة التي مازالت تعمل بالكيروسين في الترعة أو تصطدم بشجرة...ليت الموت متاح بهذه السهولة هنا ...إذن لكانت الإثارة عظمى ...لا أعلم السبب لكن الحوادث نادرة عندنا وعندما تقع لا تقتل أحد.من حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب ...غالبا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة لكنك للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم .لماذا لاننتحر ؟ لا أعرف..الانتحار يبدو سوقيا و(بلدي)جدا ،يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار ..الفتى الفاشل في حبة يحرق نفسه ..ياللسوقية كيروسين وضوء خافت وحي شعبي ودجاج ..بالذات الدجاج!كل هذا يجعل معدتي تتقلص ..الأب الذي فشل في إطعام أطفاله،الفتاة التي تبتلعالاالأسبرين ...نحن أكبر وأرقى من هذا الهراء ...لابد أن يكون الموت أنيقا مسرحيا."[١١٤]

أما بالنسبة للأغيار فهم أيضا لهم معجم لغوي تدور حوله حياتهم حدده الكاتب أكثر من مرة ،ومعجمهم اللغوي قائم على النفي وليس الإثبات ،بمعنى أنهم يتمنون هذه الأشياء ويبحثون عنها في حياتهم ولكنها غير متوفرة لهم ،يقول جابر "يمكن أن يتحمل المرء الحياة بلا مأوى ..بلا مأكل ..بلا سقف...بلا حبيبة ...بلا كرامة ...بلا أسرة (باستثناء صفية) ...بلا ثلاجة ...بلا جهاز

هاتف...بلا جهاز تلفزيون...بلا ربطة عنق..بلا أصدقاء...بلا حذاء ...بلا سراويل...بلا فلوجستين...بلا واق ذكري ...بلا أقراص للصداع..،بلامؤشر ليزر..ولكنه لا يتحمل الحياة بلا أحلام ..أن تنتظر شيئا ..أن تحرم من شيء ...أن تغلق عينيك ليلا وأنت تأمل في شيء .أن تتلقى وعدا بشيء ،فقط في سن العشرين أدركت الحقيقة القاسية وهي أن على أن أحيا بلا أحلام."[١١٥] وهذه المفردات كما هو باد لنا تدور حول جوانب رئيسة وهي(الغذاء–الملبس–الدواء–الجنس–المخدرات)وهي باستثناء المخدرات عوامل البقاء للجنس البشري ،ويكللها الكاتب بأهم عامل وهو (الحلم)أو مايمكن أن نسميه(الدافع) الدافع لأن نحيا ،فنحن نحيا أننا لدينا أحلام نأمل في تحقيقها.

وإضافة إلى هذه المفردات المفقودة في معظمها أو في معظم الوقت ،هناك كلمات أخرى تدور حياتهم حولها،ويسعون إليها للحصول على بعض مما فقدوه ،وليس لهم طريقة إلا هذه لأنها أضحت غابة لا مكان فيها للضعيف،ونجد الكاتب يضعها كعلامات واضحة متكررة في سرده،ومنها:"ضربات... طعنات...ركلات...بصقات...شتائم...قبضات...نصال ..عرق"[١١٦] وهذه الكلمات كررها وأعادها في نفس الصفحة مرة أخرى ،وهي كلها مرتبطة بالعنف والقهر الذي يرتبط بالطبقات الفقيرة فحتى الضعيف فيهم لايعش.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن لفظة(الأغيار) [١١٧]مصطلح ديني يستخدم في اليهودية بكثرة للدلالة على غير اليهود،وتتبدى فيه النزعة المتطرفة في التمييز بين اليهود كشعب مختار ومقدس وبين غيرهم ،وربما أراد الكاتب الإشارة إلى الاحتلال الصهيوني والإشارة كذلك إلى معتقدات اليهود القائمة على العنصرية البغيضة ولو من بعيد من خلال هذا الأمر،يعضد ذلك التأويل وجود شخصيات إسرائيلية يعيشون في يوتوبيا ،بل وانتهت قضية الصراع العربي الإسرائيلي في يوتوبيا ولم يعد لها ذكر أو حتى مبرر.

**استشراف الثورة (بقايا آدمية):

رغم فقدان الأغيار لآدمياتهم –بشكل في معظمه لا إرادي– نتيجة للظروف السيئة المحيطة بهم ،إلا أنه تبقى في بعضهم قليل من الآدمية والتي بينها الكاتب من خلال رفض جابر الدم من كلا الطرفين، وذلك هو الذي دفعه لحماية (راسم وجرمينال) اليوتيوبيين ،ومحاولته إرجاعهم إلى يوتوبيا متحملا الكثير من الصعوبات والمخاطر من أجل هذا الأمر .ولكنه كان يبحث عن تحقيق لفعل (الإرادة) الذي حرم منه معظم حياته. هو لا يريد دما ،ويحاول تحقيق إرادته تلك رغم كرهه لهما،ولكنه يحاول إثبات آدميته لنفسه قبل أي إنسان فيقول:" كنت أكرههما كالصراصير ..من الجميل أن تكره بصدق وحرارة؟؟ منذ دهور لم أكره شيئا بهذا الصدق (...)برغم كراهيتي تلك–وربما من أجلها– لا أنوي قتلهما. هما تحت رحمتي تماما ولو فتحت فمي فلن يطول الأمر قبل أن أراهما قطعا من اللحم المفروم تأكلها الكلاب لو كانت هناك كلابا .

لكني بالفعل لا أريد دما....لا أريد قتلى."[١١٨]

هذه هي النقطة التي تحدد كل شيء ...الدليل الوحيد الذي يخبرني أنني ما زلت آدميا ولم أتحول إلى ضبع ..إنني في هذا أتفوق عليهما...أتفوق على أهلي وجيراني ...أتفوق على كل ما كنته أمس....لا أريد دما..لا أريد قتلى .."[١١٩]

وليس ذلك فحسب، بل يحاول جابر إيجاد التشابه بينهما ،فيقول :"الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدا ..

كلانا هنا وهناك نعشق العنف

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت

هناك يتعاطوا المخدرات ليفروا من الملل.

هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله،وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه...
هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة.
هنا نحترف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن.
العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن...
لهذا لاأريد دمًا ...لا أريد قتلى."[١٢٠]
ومن هنا حقق (جابر) إرادته، واستطاع حماية(راسم و جرمينال) من الأغيار ،وآواهم في منزله وأطعمهم ،وتغلب على نفسه حينما أراد تحقيق جزء من الانتقام من خلال اغتصاب جرمينال فمنعها عن هذا الأمر. وفي النهاية قام بتهريبهم من خلال الأنفاق إلى يوتوبيا ،ولكن النهاية كانت غير متوقعة ،فراسم اغتصب أخت جابر، وقتل جابر بعدما وصل إلى يوتوبيا وقطع ذراعه لكي يتفاخر به كتذكار على نجاح رحلة الصيد الخاصة به.
ومن هنا قامت (الثورة غير المتوقعة) على اليوتيبيين ،فرغم أن شخصية الأغيار انهزامية بل وتبدو راضية بكل شيء ومستسلمة تماما ،لاتنبئ أبدا بإمكانية قيام ثورة ،حتى أنهم كانوا يتوقعون أنه لو أقام الأغيار ثورة ستكون من أجل(الفلوجستين\المادة المخدرة التي أدمنوها) ولن تكون أبدا من أجل الكرامة أوأي من المعاني الإنسانية السامية ،خاصة في ظل الحيوانية التي وصل إليها المجتمع ،ولكن تحدث الأمور غير المتوقعة من حيث تأمن ،فحادثة (جابر)مثلت القشة التي قصمت ظهر البعير ،وأثارت البراكين الخامدة الخاملة.
تقول لارين في استخفاف عند ثورة الأغيار في نهاية الرواية:
"إنهم قد سُلبوا كل شيء وظلوا صامتين فماذا يحدثه موت واحد من فارق؟ لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه...
راسم:بل لاتقوم إلا لأسباب كهذه..الصخرة تحملت الكثير من الضربات ،لكنها تفتت عند الضربة الخمسين ..لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة ..

-هذه قصص أطفال.

-وهل الجموع الغاضبة سوى أطفال؟"[١٢١]

وما أشبه هذا السبب الذي قامت لأجله ثورة الأغيار على اليوتيبيين بسبب قيام الكثير من ثورات الربيع العربي ،وربما لهذا التشابه اعتبر الكثيرون أن رواية(يوتوبيا) استشرافا لهذه الثورات قبيل قيامها. وخلاصة الأمر فإن رواية (يوتوبيا)والتي مثلت باكورة الأعمال الديستوبية بالنسبة للروايات العربية وبالنسبة للكاتب واستشرف فيها حال المجتمع المصري عام ٢٠٢٠م بكل ما تحمله من تحليل عميق للواقع المصري وللشخصية المصرية ،ومن تنبؤات للمستقبل الذي تحقق جزء منه بالفعل ،مثلت صرخة واستغاثة لكي ننتبه جميعا(شعوبا وسلطات) للتغيرات الحادثة في الأنساق المجتمعية والسياسية والاقتصادية وعلاجها لأن الوضع أصبح كابوسيا وأصبحت المدينة الديستوبية ليست استشرافا بل واقعا .ومن الجدير بالذكر أنه إذا كانت هذه التنبؤات قد حدث الكثير منها في الواقع العربي والمصري وخاصة قيام ثورات الربيع العربي بما فيهم ثورة الخامس والعشرين من يناير ،وكان من المفترض أن يتحول الوضع في البلاد العربية من ظلام إلى ضياء ،ولكن ما حدث كان العكس وساءت الأمور والأوضاع في البلاد العربية لأسباب كثيرة ..لسنا بصدد الحديث عنها الآن.لذلك قام الكاتب بإصدار روايته الديستوبية الثانية(ممر الفئران) عام ٢٠١٦م وذلك قبيل وفاته بسنوات قليلة وهي أشد سوادوية من الأولى ،ولا تنتهي بأمل مثلما كانت الأولى وذلك في حد ذاته رصد للتغيرات الحادثة في رؤية الكاتب نفسه وفي تحليله للواقع. وكذلك جاءت الرواية مغايرة في بنيتها وفي استراتيجيتها فاعتمدت أكثر على الخيال وبعدت عن الربط المباشر بالواقع ،والتحليل المباشر للأحداث كما جاء في يوتوبيا.كما تغيرت الرؤية في كثير من الأمور بما يتناسب وتغير الأوضاع السياسية والمجتمعية في البلاد ،وخلق الكاتب فيها عالما خياليا تماما أو لنقل نقلنا إلى(واقع سحري) يستشرف فيه ما قد يكون ممكنا بعد فترة أخرى. فمالانقبله الآن قد نعتبره مسلما

به بعد فترة زمنية ،لذا الانتباه إلى هذه الخطابات التي تحمل صرخات واستغاثات واستشرافا للمستقبل ضرورة يقع عبء حملها على الجميع.

(٣/٢)ممر الفئران:

يقول الكاتب في مقدمة روايته :" لعل السبب الذي دفعني لهذه المعالجة هو أن الفكرة بدت لي في رمزيتها ملامسة للواقع السياسي الذي تحياه شعوبنا العربية حاليا في مخاضها نحو الحرية والقيم الإنسانية العالمية .فهي بذلك تربة صالحة وملائمة لاستخدامها بشكل أكثر عمقا من أن تكون قصيرة مقتضبة."[١٢٣] وهذا التصريح يوحي لنا ويوضح الموضوع الذي تدور حوله الرواية وكذلك أهداف الكاتب ،هذا من جهة، ومن جهة أخرى اهتمام الكاتب وأيديولوجيته التي تهتم بالمجتمع وبمسئوليته تجاهه وتجاه قضاياه ،ليس المجتمع الصغير الذي يعيش فيه فحسب، بل العالم أجمع ،فيسعى لتأكيد المشترك الإنساني وقضايا الاتفاق أكثر من الاختلاف.

تسير الرواية في خطين (مدينة واقعية ومدينة متخيلة ديستوبية تماما)، فتبدأ من العالم الواقعي مع بطل الرواية (الشرقاوي) وتعرض لأزمة وجودية تنتاب الإنسان وتردد التساؤلات الوجودية التي تنتاب الكثيرون في مراحل مختلفة من حياتهم. فيعرضها أولا من خلال (الشرقاوي) وهو شخص لديه كل شيء ولكنه يشعر بالاغتراب والتعاسة كما يظهر من خلال المقاطع السردية التالية: –" كل هذا له ،لكنه لا ينتمي لأي من هذه الموجودات .أزمة وجود قد استفحلت واستطالت أنيابها."[١٢٤]

–"لم يعد ثمة شيء قادرا على جعله يندهش أو يتوجع .يشتهي لحظة من الألم الحقيقي الخام الصادق الصافي ،يشتهي عاطفة لا يفلسفها مرة..حزن...ألم...نشوة..اشتياق."[١٢٥]

وعقل الشرقاوي يعذبه باستمرار جراء التفكير المستمر،وهي حالة معروفة لدى من يدمن التفكير ،فعقولهم تكون أكبر معذب لهم على الإطلاق ويتمنون في أوقات كثيرة أن تكف عقولهم عن التفكير ولو لفترات بسيطة ،لذلك

يتمنى الشرقاوي استئصال عقله، ونجده يوجه له الخطاب دائما قائلا: "يا معذبي.. أي عقلي الذي لن يرضى أبدا ولن يهمد أبدا ..أي عقلي يا ألد خصم لي على ظهر البسيطة .أيها الجاحد الأعظم يا من لايرضى .عندما يبدأون في جراحات استئصال العقل،فلسوف أكون أول من يتطوع .طفل مشاكس هناك بين عظام الجمجمة يبلغك أنك انتصرت في المعارك الخطأ."[١٢٦]

يملك الشرقاوي كل شيء يمكن أن يحسده عليه الآخرون ولكنه ضعيف رخو لا يستطيع مواجهة أي شيء ولا يستطيع البوح بمشاعره وبآرائه وبأفكاره. يقول: "أنت قد هزمت وسحقت ...مديرك أقوى منك ..زوجتك أقوى منك ..أولادك أقوى منك..المجتمع كله أقوى منك .أنت لاتقدر على ركل كلب في زقاق لأنه سيمزقك ،ولاتجرؤ على تحدي ضابط شرطة أو مسئول كبير لأنه سينهي مستقبلك ،ولاتجرؤ على مصارحة امرأة تشتهيها بأنك تشتهيها ..هذا بالطبع قبل أن تنتهي لفظة اشتهاء من قاموسك ...لا تجرؤ على ذكر رأيك في الدين أو المجتمع أو الناس .الكون هرم مقلوب يسحقك..الكون قد خرج للظفر بك وأنت بلا مخالب،أنت رخو ..ضعيف..أنت عاجز عن مواجهة أي شيء .لا تجرؤ حتى على مصارحة نفسك بمقدار ضعفك وماذا تريد ؟لاأدري؟لا أحد يدري."[١٢٧]

تتلخص أزمة الشرقاوي الوجودية كما يعرضها الكاتب في شعوره بالاغتراب عن نفسه وعن مجتمعه،وفقدانه الهدف والرغبة ،وعدم قدرته على التعبير عن نفسه وعن احتياجاته وعن فكره.والشرقاوي من الطبقة المتوسطة المنتشرة بالمجتمع المصري ،وكذلك صفاته مثل صفات الكثيرين ،فلديه أمور كثيرة قد يحسده عليها الآخرون ،ولكنه رغم ذلك يشعر باغتراب عن المجتمع ولا يعرف ما هدفه وما قيمته وما طريقه ،ويخاف من التعبير عن آراءه وأفكاره .ولم يستطع طوال حياته اكتشاف نفسه أو اكتشاف أهدافه ورغباته.

ومن هذا المحور تحديدا ينطلق الكاتب إلى عالم آخر أو بعد آخر لتصبح هذه المشاكل الوجودية لا أهمية لها مقارنة مع واقع سوداوي ،تصبح

رفاهية لا يملك الآن حق التساؤل عنها،فقد"كان مترفا يسأل أسئلة وجودية ..الآن لا مجال لهذا الهراء."[١٢٨]وهذه الأزمة الناجمة من الواقع الاجتماعي والسياسي حين تتطور ستصل إلى بعد آخر أو عالم ديستوبي آخر وهو(ممر الفئران) وتأتي نقطة التحول الروائية من وقوع الشرقاوي في (غيبوبة)ليحلم أنه في ممر الفئران.

يقول الكاتب:"الشرقاوي انتقل لبعد آخر (...) إن جسده في عالمنا ، لكن وعيه في بعد آخر قصي.مالانعرفه هو أننا عندما نحلم فإن وعينا يسافر لبعد آخر ليمارس حياة أخرى ويلقي أناسا آخرين ،ويعرف وجوها أخرى(...) تفسير الغيبوبة ؟لا أعرف .أعرف فقط أن الشرقاوي انتقل لبعد آخر كما قلت وأعرف أن رحلته عبر ممر الفئران قد بدأت ولن تنتهي عما قريب ربما لن تنتهي أبدا.."[١٢٩]

ومن هنا تبدأ رحلة الشرقاوي في ممر الفئران .

ممر الفئران هو ذلك الاسم الذي اقتبسه الكاتب من قصيدة إليوت (الأرض الخراب)[١٣٠] والتي اتكأ على رمزيتها في الرواية واستعان ببعض أبياتها .

يقول إليوت –كما ذكر الكاتب في بداية صفحات الرواية –:

أفكر أننا في ممر الجرذان
حيث فقد الموتى عظامهم
أي ضوضاء هذه؟
إنها الريح تحت الباب
وما هذه الضوضاء الآن ؟ماذا تفعل الريح؟
لاشيء..نعم لاشيء
ألا ترى شيئا؟ألا ترى شيئا؟
ألا تذكر شيئا؟
بلى أذكر

هاتان لؤلؤتان

كانتا من قبل عينيه

أحي أنت أم لست حيا؟ أليس في جمجمتك شيئ.

تبدأ القصة الثانية الرئيسية مع مجموعة من الشخصيات التي يحكي الكاتب ذكرياتها (في النور)

يحكي عن رامي الطالب بكلية العلوم قسم الجيولوجيا .وهو"شاب من الطراز الذي لايتميز بشيء وأسرته عادية متوسطة .ويحكي عن أسرته(علاء–علياء–والدتهما،عزة أختهما الكبرى)ولكن تركيزه الأكبر على رامي والذي يعتبر شخصية رئيسة من شخصيات الرواية ،وهو الآخر لديه أزمات وجودية فـ"لم يكن متحمسا للعلم بحال ،وإنما هو حماس من يمشي في درب لا يعرف من وضعه فيه ولامتى ينتهي ولا لماذا يمشي فيه..ذات نظرة إيليا أبو ماضي للحياة هي نظرته للكلية."[١٣١]

أما فاتن فهي زميلة رامي في الصف، وهي "نموذج للجمال الأنثوي المهيب."[١٣٢] ،وهي تتعرض للتحرش من قبل أستاذها في الجامعة الدكتور مصطفى ،ويشهد رامي هذه الواقعة ،ومن هنا تبدأ علاقة رامي بفاتن من جهة ومن جهة أخرى علاقته بالدكتور مصطفى.

لثورية الناشط السياسي أحمد ماهر . يقول عنه:"أنت تعرف ماهر وميوله الثورية.. إنه من هؤلاء الجيفارات الموجودين وسط كل مجموعة طلابية .هناك دائما شعلة للثورة والتمرد في كل دفعة ،وهذه الشعلة قد تتخذ طابع جيفارا اليساري شبه الماركسي،أو طابع سيد قطب المتزمت المطالب بالحاكمية لله،كان ماهر أقرب لجو جيفارا."[١٣٣]

وجدير بالذكر الإشارة إلى سيميائية أسماء الشخصيات التي استخدمها الكاتب ففي معظمها لها دلالات على وظيفة الشخصية في الرواية، فأسرة علاء مثلا هي أسرة عادية لذلك كأن الكاتب أراد ترميزها بالحرف الأول وهو(ع) فجاءت الأسماء لتدور في هذا الفلك(علاء–علياء–عزة)

أما (فاتن)فدلالة اسمها لغويا تحيل إلى وظيفتها وسماتها في الرواية فهي رمز للجمال والفتنة والأنوثة. أما(ماهر)فاسمه جاء كإشارة أو إحالة ذهنية للناشط المصري عضو حركة ٦إبريل أحمد ماهر، وتتركز وظيفته في الرواية على الثورة.

يبدأ هذا الأمر بخبر عن اقتراب نيزك من الأرض بسرعة جهنمية، يصفه عالم من ناسا قائلا:" هذا نيزك غريب الأطوار....لانعرف من أين جاء ولا لماذا قرر أن يدّمر عالمنا، لكن النتيجة الحتمية هي أنه سيصدم كوكبنا لتكون هذه هي نهاية الحضارة كما نعرفها."[١٣٤]

وهنا نتوقع جميعنا كقراء أن الرواية ستتحول إلى رواية من أدب نهاية العالم، وسنشهد لتونا اللحظات الأخيرة لهذا العالم ،وبالفعل سنشهد كقراء اللحظات الأخيرة للعالم، ولكنه العالم المبصر المضيء الذي نعرفه ،فقبل أن يصطدم النيزك بالأرض بدأ الناس يحققون بعض أمانيهم فتزوج الكثير من الشبان والفتيات اللائي تربطهم علاقة حب ،ونتيجة للمتغيرات الحادثة في العالم ولاقتراب نهاية العالم تساهل الأهل مع الشباب وذلك لرغبتهم في رؤية أولادهم سعداء في اللحظات الأخيرة من حياتهم ،فلا قيمة لأي مطلب مادي يطلبونه الآن. وكان ضمن هؤلاء الأزواج (رامي وفاتن). كما أن هناك من تخلى عن ممتلكاته وباعها بأبخس الأثمان ،وهناك من اشترى الكثير من الممتلكات لعدم تصديقه تلك الروايات ،بشكل عام أصاب الناس هيستيريا عامة وهلع وفزع . يقول الكاتب: "انطلق الدعاة في كل مكان يذكرون الناس بالنهاية ويدعونهم للتوبة وكنت تسمع أصوات القرآن تتلى في كل مكان بينما تدوي أجراس الكنائس .كأنها مراسم جنازة الأرض التي عرفناها. العالم صار سرادقا كبيرا ينتظر فيه المعزون .والغريب أن هذا دفع بعض الناس لأقصى درجات التدين، بينما دفع آخرين لأعتى درجات الفجور .ليلة الشنق يطلب البعض وجبات دسمة ويفضل البعض الزهد فلا يتبلغون بشيء. في كل يوم كان هناك من

يفضل ألا ينتظر الكارثة ويفجر رأسه بمسدسه أو يثب من فوق بناية شامخة أو يبتلع السم...الموت الذي تختاره أنت قد يكون أقل وطأة."[١٣٥]

و"في كل مكان كنت تجد سرادقًا منصوبًا يجلس فيه الكبار ويذهب له المتخاصمون(...)يتبادل الأشخاص الصفح. لقد ماتت رغبة الانتقام ولم يعد أحد مهتما بالقصاص .وفي الصعيد كثرت المجالس العرفية ومراسم تقديم الكفن .الكل يريد أن يصفح عن الكل .فلم يعد ثمة وقت للأحقاد.العالم كله يتناول وجبة السجن الأخيرة .العالم كله يتناول لفافة التبغ الأخيرة ويتمنى شيئا .العالم كله يقف على طبلية الإعدام ينتظر اللحظة الأخيرة."[١٣٦]

وحانت اللحظة التي يصطدم فيها النيزك بالكوكب."اللحظة التي ظن الجميع فيها أنهم قُضي عليهم ،ولكن فوجئوا أنه لم يحدث شيء بعد الاصطدام سوى بعض الغيوم التي ما لبثت أن تحولت إلى ظلام ..ظلام دامس ،وتحول العالم إلى ممر فئران ماعدا(أمريكا)التي اختفت تماما.(أمريكا) تلك القوى العظمى التي ترهب الجميع انتهت تماما لتترك بقية العالم يعيش كما يشاء.ولنر حينها لمن ستنتقل القوة.إسرائيل تحولت إلى قط محاصر شرس ينزوي جوار جدار ،وقد أدركت أن أيامها معدودة ،من دون ولايات متحدة تجد إسرائيل نفسها عارية تماما ،لكن أوان دفع الثمن لم يحن بعد."[١٣٧]

ويصف الكاتب هذا العالم المظلم \العالم بدون ضوء (ممر الفئران)من خلال مقاطع سردية متعددة داخل الرواية

ف"في كل يوم كانت الرؤية تصير أصعب ...الوجوه تزداد ضبابية. القراءة شبه مستحيلة إلا على ضوء كشاف.. وأدرك الناس أن الظلام يتوغل.. لقد دخل الناس ممر الفئران ولن يخرجوا. (...) فلم يعد هناك صباح.. لا نهار ...لا شمس." ولكن لم ينس الناس النور في البداية لأنه "من حين لآخر تدوى عواصف رعدية مرعبة ويهوى البرق ليحرق شيئا..عندها فقط كان الناس يتذكرون ما هو النور السماوي لكن كان يتم إطفاء هذه النيران خلال ثوان."[١٣٩]،ولقد"ولد جيلا كاملا لم ير الضوء في حياته ..جيل من أطفال

الظلام لكن أغلب هؤلاء كان يموت بأمراض نقص الشمس أو تشوه عظامه بالكساح."[١٤٠]

ونتيجة لهذا التغير الحادث في البيئة فكان لابد من التأقلم مع الحياة بطرق مختلفة ،ومحاولة التكيف مع الواقع وإيهام الناس أن كل شيء على مايرام ،فالفن مازال موجودا مثل معارض الفنون التشكيلية والمتاحف كذلك وكل شيء يتم فيها باللمس، والنقود مازالت وسيلة للتعامل ولكن التعامل يتم فيها من خلال الثني،وكل انثناءة لها علامة ودلالة .أما الطعام فكان من اللحوم فقط نتيجة اختفاء الضوء وبالتالي عدم وجود نباتات ،وتحول الأراضي الزراعية إلى صحراء.ومازال إثبات الهوية موجودا فبدلا من التوقيع التقليدي المتعارف عليه أصبحت بصمة الأذن هي التي تميز بين شخص وآخر ، وطالت هذه التغيرات العلوم فلم يعد هناك قيمة لبعض العلوم وانقرضت تدريجيا وذلك مثل الفيزياء والكيمياء، وقد أصبح لهذا العالم أمراضه الخاصة المنتشرة فيه مثل الكساح واكتئاب الظلام.

وكان طبيعي أن يلحق اللغة تغييرات نتيجة لكل هذه الاختلافات "فهناك كلمات انتهت من اللغة لأنها لم يعد لها قيمة مثل (صباح الخير ،نهارك سعيد) ففي البدء كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم.وهناك أشياء لم يعد لها معنى ..ما معنى أن اللبن أبيض؟ما معنى أن البحر أزرق؟ما معنى أن فلانا أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ.هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون."[١٤١]

كل هذا كان في ممر الفئران والذي فوجئ الشرقاوي بنفسه فيه من حيث لايدري.جاء هذا البطل بالنسبة لهم من "اللامكان" فظنوه المخلص .مخلص هذا العالم من ظلم القوميدان.

ومن الجلي أن هناك ثلاثة عناصر ثابتة في كل رواية ديستوبية(الظالم–المظلوم–المقاوم) ، أما الظالم فهو (القومندان) الذي اختار لنفسه عالما آخر يحظى بالنور أعلى قمة الهيمالايا،يحيط به مجموعة كبيرة من المنتفعين

المسيطرين على البلاد. وأما المقاومون فهم (النورانيون) ، وأما المظلومون فهم (عموم شعوب العالم). وهذه هي البنية العامة التي تدور فيها أحداث الرواية والتي تشتمل على كل مظاهر الديستوبيا كما سنراها في الصفحات القادمة .

يمزج أحمد خالد توفيق الواقع ومرارته بأدب نهاية العالم بأدب المدينة الفاسدة وفي الحقيقة هي عناصر شديدة التشابك. فكل منها تؤدي للأخرى، فذلك الواقع المرير الذي يعيشه العالم العربي وهو عالم ديستوبي بالدرجة الأولى والذي قد يخلو نهائيا فيما بعد من أي معالم تدل على الصلاح .المدينة الفاسدة التي يتخيلها إذن هي موجودة في الواقع بكل عناصرها المقيتة ،ولكن بدلا من أن يعبر عنها الكاتب صراحة يستعير لها عالما متخيلا تماما في زمان آخر أو حتى حكاية أخرى بسمات مختلفة عن العالم الذي نعيش فيه ،فلنقل إنها(بلاغة المقموعين)أو لنقل إنها الطريقة الدبلوماسية التي يستطيع بها الكاتب التعبير عن واقعه وأزماته وسماته بدون أن يوقع نفسه في أزمة كبرى مع أطراف أخرى تحرمه القول والتعبير.

<u>٣/٣)قواعد جارتين):</u> وإذا كانت رواية "ممر الفئران" صعب تحقيقها وحدوثها في الواقع ،وإن اتخذت من الواقع مرتكزا لها.فإن رواية (قواعد جارتين) بجزءيها رواية خيالية تماما لا تمت للواقع بصلة إلا من بعيد ،يمكنك إحالة المفاهيم العامة والصراع العام إلى الواقع ،هو صراع دائم بين طرفين أو لنقل ثلاثة (ظالم، مظلوم، مقاوم)

الرواية قائمة على تخيل مكان غير موجود بالواقع ، بنى الكاتب كل أحداثه على أرض خيالية تماما، وكذلك شخصيات تتسم بسمات تحمل نكهة الأساطير القديمة التي يعشقها الشعب، والتي تتحلى بصفات معجزة غير عادية لا يتسم بها البشر، وربما كان ذلك سر شهرة الرواية الكبير بين القرّاء فهو يصمم ويبدع عالما خياليا غير موجود في الواقع ولا يمت له بأي صلة ،ويناقش فيه قضايا أزلية ستظل غالبا موجودة ومرتبطة بالبشرية.

رواية قواعد جارتين عبارة عن تخيل لمنطقة أخرى غير الأرض التي نعلمها، بها قواعد للحياة يصنعها البشر ،وتعتمد على تقسيم البشر إلى صنفين:الأشراف والنسالى ،يتحكم الأشراف في كل شيء أما النسالى فهم للعمل ولمتعة الأشراف ،وليس لهم حق الزواج ،وإن تزوجوا وحملت امرأة فابنها يولد ميتا إلا إذا ذهبت لباحة جويدا يوم الغفران وحصدت لابنها روحا من أرواح من يُحكم عليهم بالقتل.

**وضع الأشراف مجموعة من القواعد التي تنظم الحياة وفقا لرؤيتهم ،ويمثل جزء منها مظاهر الفساد خاصة بالنسبة للقسم الثاني من الشعب (النسالى)، ومن هذه القواعد:

القاعدة الأولى:إن جارتين لم تنس أبدا ما فعله العجزة بحضارتها لذا لا يعش على أرضها من يعبر عامه الخمسين[١٤٢]

القاعدة الثانية:يلحق العار بالروح المذنبة للأبد.[١٤٣]

_من القواعد أيضا إن تزوج نسلي من شريفة جارتينية يصير أولادهم شرفاء وقد يمنح القاضي ذلك النسلي حكما مخففا إن ارتكب جرما صغيرا تكريما لزوجته.

**لابد من زواج شرعي قبل ولادة الطفل على الأقل بسبعة أشهر غير ذلك يصير المولود نسليا ولو كانت أمه ابنة حاكم جارتين نفسه.

– لا يحق لأي جارتيني أن يمنع نسليا من التواجد في شوارع المدينة ،إنهم في الحقيقة جارتينيون مثلنا مثلهم تماما ،ولهم كافة الحقوق لمن يخطئ في حقهم،لكن يبقى على كل واحد منهم أن يسير على صراطه المستقيم دون ارتكاب جرم صغير طالما يتواجد بالمدينة بعد بلوغه عامه السادس عشر ..قضاة بلادنا بلا رحمة ،لا تفرق معهم ذكورا أو إناثا بعد ذلك السن..لذا يفضلون هم الابتعاد من أنفسهم.[١٤٤]

ويركز الكاتب في الجزء الثاني على تاريخ جارتين الذي زُوِّر أو تم إخفاء الكثير منه .ويمتد آثار هذا الأمر لمحو آثار غفران (الرامية)من الكتب أيضا . وتنتهي الرواية بثورة غير متوقعة من النسالى .

بالرواية العديد من المظاهر الديستوبية التي تجعلها تحت هذا النمط من الروايات منها ماسبق وأشرنا إليه ،ومنها مايتعلق بتزييف الوعي ومناهضة الفكر والثقافة والدموية والعنصرية الموجودة في المدينة القائمة على التفريق بين البشر.

(٣/٤)رواية عطارد(محمد ربيع):

رواية عطار للروائي المصري المهندس محمد ربيع من الروايات التي وصلت للقائمة القصيرة للبوكر .وقد نشرت الرواية بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير عام٢٠١٥م. ومن الملاحظ أن الروايات المنشورة عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير أكثر قتامة ويأسا وديستوبية من الروايات المنشورة قبلها، وذلك يوحي بحالة اليأس الشديدة التي وصل إليها المجتمع عموما والشباب–تحديدا– من الظروف المجتمعية والسياسية في البلاد ،وعدم قبولهم للتغيرات المختلفة في الأنساق المجتمعية والسياسية والخلقية والاقتصادية، إضافة إلى شعورهم بخيبة الظن والفشل الذريع الذي باءت به معظم ثورات الربيع العربي.

تثير الرواية الكثير من الجدل ،والعديد من التساؤلات خاصة فيما يتعلق بلغتها وأحداثها الدموية والعنيفة والمشاهد الجنسية المتكررة بداع وبدون داع ،كما سنوضح أكثر لاحقا.

رواية عطارد رواية ديستوبية سوداء بامتياز ،وحتما سيسيطر على قارئها جو من الحزن والكآبة والتقزز منذ أول لحظة يلتحم فيها مع الرواية بدءا من عنوانها(عطارد) وهو أقرب الكواكب للشمس ،وفي نفس الوقت هو اسم بطل الرواية وشخصيتها الرئيسة الضابط(أحمد عطارد) ليمثل الاسم دلالة الجحيم والعذاب المتواصل الذي لا ينتهي .

وإذا أردنا وصف الرواية في كلمات مقتضبة منفصلة ولكنها متشابكة في معانيها فيمكننا القول أنها تدور في فلك الكلمات الآتية (العبث_العدمية_الفوضى_القتل_الدم_الدعارة_اللأخلاق _اللامبالاة_الرغبة في الموت_الجحيم)

تختلف رواية (عطارد)عن الروايات الديستوبية الأخرى التي تركز على القوى الشمولية الظالمة وعلى مناهضة قوى أخرى لهذه الأنظمة ،وما تفعله هذه الأنظمة في الشعوب وما تؤدي إليه أنظمتهم من تغيرات في الأنساق المجتمعية والأخلاقية والاقتصادية .ركزت عطارد على انهيار المنظومة الخلقية أكثر واضمحلال الأخلاق في المجتمع بشكل كبير جدا والتغير في الشخصية المصرية وما لحقها من حالة اللامبالاة الشديدة والاستسلام والانهزامية ،لذا إذا جاز لنا تسميتها فيمكننا أن نطلق عليها (ديستوبيا مجتمعية)

كانت (عطارد)استشرافا للمرحلة التالية للحكومات الشمولية ،فجاءت كنتيجة لأفعالهم ،ولم تتعرض إلا للنذر القليل من أفعالهم السابقة وسياستهم .ويصبح السؤال الذي تنطلق منه الرواية :ماذا سيحدث في المجتمع والناس إذا استمر الظلم والفساد أكثر،وإذا استمرت الحكومات على نفس النهج؟ كيف ستكون أخلاق المجتمع إذا انحدرت أكثر مما هي فيه الآن ؟ماذا يمكن أن يفعلوا ببعضهم البعض؟وكيف سيكون رد فعلهم تجاه الآخر وتجاه الحياة؟

وهذه المنطلقات تبرر وجود أكثر من خط زمني في الرواية حيث تقع أحداث الخط الزمني الأول أثناء ثورة الخامس والعشرين من يناير،والخط الزمني الآخر هو المستقبل (عام٢٠٢٥م) .

وهناك فصل يعود فيه لعام(٤٥٥هـ) يتحدث فيه عن شخصية (صخر الخزرجي) وهو فصل زائد لاقيمة له _من وجهة نظري_ تشعر أنه دخيل على أحداث الرواية.

منذ اللحظة الأولى التي قرأت فيها الرواية وأنا أشعر بالاشمئزاز والتقزز والرعب منبعهم الفوضى ،انعدام الأخلاق، مشاهد القتل الكثيرة والمرعبة وبعدما انتهيت من قراءة ما يقارب الثلاثمائة صفحة سألت نفسي السؤال الذي سألته منذ البداية ما القيمة الجمالية والفكرية التي ستضيفها الرواية لي ولبقية القراء ؟ وهذا السؤال تحديدا أوقعني في إشكاليات متعددة أهمها هل يبرر تحذير الناس واستشراف المستقبل استخدام كم هائل غير محدود من الألفاظ البذيئة جدا

والمشاهد الجنسية المبالغ فيها ؟ ووجدت أن مصدر اشمئزازي من الرواية والذي أشعر به عادة بعد مشاهدتي لفيلم من أفلام الرعب ،ليس الأحداث فحسب إنما اللغة البذيئة أيضا .أما عن كل هذه المشاهد المستمرة من القتل فرأيي أنه كان من الممكن (من وجهة نظري)تقليصها بنسبة كبيرة والتعمق في زوايا أخرى وجوانب أخرى من مظاهر الديستوبيا. ورغم ذلك فقد نجح الكاتب في تسليط الضوء على صفات بعينها موجودة في المجتمع واستشرف ما سيحدث لو انتشرت أكثر ،حينها سنقول وداعا للإنسانية ،وسنقول كما قال عطارد(فشلت الإنسانية).

والسؤال الآن :(هل يمكن أن نتحول إلى عطارد في يوم من الأيام؟ أم ترانا ننتقل إلى ممر الفئران ؟

(٤)

المظاهر الديستوبية في الروايات

هناك العديد من المظاهر الديستوبية التي نجدها حاضرة في الروايات محل الدراسة ،بعضها واضح أكثر من غيره والمتحكم في هذا الأمر هو رؤية الأديب وأهدافه ، فهناك مثلا روايات تركز على العناصر الديستوبية السياسية وهناك أخرى تركز على الديستوبيا المجتمعية وأخلاق الأفراد أكثر من غيرها، وهناك ما يجمع بين هذا وذاك ، مع التركيز على صفة أكثر من غيرها وتكبيرها بحيث تبدو لنا هي المسيطرة.

والشكل التالي يبين أهم ما انطوت عليه الرواية الديستوبية العربية_محل التطبيق_من مظاهر ديستوبية غالبة.

التحول القيمي
ممر الفئران
مراقبة الأفكار وتزييف الوعي
*يوتوبيا
*ممر الفئران
*قواعد جارتين
محاربة الثقافة والفكر والقراءة
•يوتوبيا
•ممر الفئران
•قواعد جارتين
طمس التاريخ وإهماله وتغييره
•يوتوبيا
•قواعد جارتين
•يوتوبيا(اليوتيبيون-الأغيار)
•قواعد جارتين(النسالى-الأشراف)
•ممر الفئران(من يعيش في النور-عامة الشعب الذين يعيشون في الظلام-ممر الفئران\النورانيون)
التحلل الديني والخلقي
*يوتوبيا
*ممر الفئران
الدموية
يوتوبيا
*ممر الفئران
*عطارد
*قواعد جارتين
اللامبالاة والعبثية
*يوتوبيا
*عطارد
*ممر الفئران
*قواعد جارتين

(٤١١) تكريس الطبقية:

من العناصر الديستوبية الواضحة في أي رواية ديستوبية ومنطقي وجودها هي تصنيف الناس إلى فئات، فئة ظالمة تحتكر كل شيء لنفسها وتبني مجتمعها اليوتوبي ،وتهمش فئة أخرى تحرمها من كافة حقوقها، ولو لم يوجد هذا التقسيم لكنا نتحدث حينها عن اليوتوبيا والتكافل والديمقراطية وليس عن الديستوبيا. ولتحدثنا عن جنة لاتوجد على الأرض.

ولكل فئة مكانها الخاص بسماته ولكل فئة كذلك قواعدها المحددة.

ويظهر ذلك في كل الروايات– محل الدراسة–كما سبق وأوضحنا ،ففي يوتوبيا هناك اليوتيبيون وهناك الأغيار، وفي ممر الفئران هناك من يتمتعون بالنور ويعيشون على جبل الهيمالايا غير مكترثين بمن يعيش في (الظلام \في ممر الفئران)،وفي رواية (قواعد جارتين) صنف الناس إلى فئتين أساسيتين هما(الأشراف\النسالى)، وقد حدد سمات للنسالى من وجهة نظر الأشراف ، وكذلك مصيرهم واحد ومعروف مهما حاولوا تغيير حياتهم. فسمات النسالى من وجهة نظر الأشراف:"النسالى مصيرهم معروف ..سيرتكبون الجريمة حتمًا يومًا ما ،لذا إن ارتكب أحدهم جرمًا صغيرًا قد يكلفه ذلك حياته .السارق منهم يعدم ..من يمتلك البارود يعدم.التعدي على جارتيني شريف دون حق يعدم ..القاتل يعدم بالطبع."[١٤٥]

وكذلك :"إنهم خطائون بالفطرة..تسري الرذيلة في دمائهم ."[١٤٦]

وبيوت الرذيلة لا يسمح بها إلا للنسالى فحسب،تقول غفران (الشخصية الرئيسة في الرواية)

"ما يثير تعجبي كثيرا أن بلادنا تسمح ببيوت الرذيلة إن كانت النساء التي تعمل بها من النسالى ،كأنها ضامن حقيقي لإنجاب أطفال غير شرعيين بما يكفي لإعدام المعدومين ...في الوقت الذي تعاقب فيه الشريفة بالسجن إن عملت بتلك البيوت ..دعني أقل أن النسالى هنا هم الطبقة الدنيا في كل شيء."[١٤٧]

وأيضا"لا يخضع النسالى للقاعدة الأولى ،ترى القواعد أن اخضاعهم لهذه القاعدة راحة لأرواحهم الآثمة وتلويث لوادي(حوران)يستطيعون المضي قدمًا في أعمارهم البائسة طالما لا تطأ أقدامهم المدينة بعد عبورهم الخمسين وإلا كانت منصة الإعدام مصيرهم لذا يظلون مشردين في الصحارى والوديان حتى تنفق أجسادهم."[١٤٨]

بينما الأشراف لهم الحقوق في كل شيء ويعيشون حياة رغدة ومتاح لهم كل ما يحرم منه النسلي ،ويكفي اسمهم الذي يحصر الشرف عليهم حتى لو لم يكونوا شرفاء.وحتى الرحيل محرم على النسالى ويظهر ذلك من الحوار التالي :"-كنت أفكر في رحيل جماعي عن جارتين ،لكنه لم يدعنا ننال تلك الفرصة حتى.

-تساءلت غاضبا :

-ولماذا لا يدعنا نرحل فحسب ليعيش حياة هانئة هو والأشراف كما يريدون.

قال الطبيب:

-منذ خلق هذا الكون ويقوم قانون الحياة بين قطبين،أحدهما ظالم والآخر مظلوم ..أما النسالى فقد شغلوا الجانب المظلم في جارتين ،جانب مظلوم ضعيف يتماشى بقوة مع هذا القانون ..لو تركنا نرحل لتبقى الأشراف فقط ،لكن هذا القانون لن يتوقف عن عمله ،ولن يرحمهم ..سينقسمون بين أنفسهم إلى ظالم ومظلوم يمتلكون القوى نفسها تقريبا ..سيأكلون بعضهم بعضا إلى أن ينهار هذا البلد ،لذا يظل بقاء النسالى هاما لبقاء جارتين ،وهو يعلم ذلك تماما.."[١٤٩]

وحتى رواية عطارد الناس ليسوا سواسية هناك طبقية وفئات فيها ،ولكن السمة الأبرز فيها هو الفساد في كل الطبقات ،فلم يركز على إظهار ميزة طبقة دون أخرى .كما سنرى لاحقا.

(٤١٢) طمس التاريخ:

ويبدو ذلك واضحا في أكثر من موضع في رواية(يوتوبيا) وأهمها على الإطلاق يتمثل في قضية الصراع العربي الإسرائيلي،فهذه القضية بعد أن كانت

واضحة المعالم بالنسبة للناس وكانت قضيتهم الأولى التي قلما تجد من يختلف حولها،وكان العدو واضحا بالنسبة للجميع وهو الكيان الصهيوني، حدث هناك تمييع لهذه القضية بل انقلب العدو إلى صديق،فأصبح الإسرائيليون أصدقاء لليوتيبين بل ويحمونهم. ولم يعد هناك داع لذكر حرب أكتوبر ،وتلاشت أهميتها على الإطلاق،بل لم يعد هناك ضرورة للحرب على الإطلاق، فالذهاب للحرب يكون من أجل كسر الملل.

يقول الكاتب على لسان إحدى شخصيات الرواية "قال لي إن أباه أصيب بجرح مماثل في حرب ١٩٧٣م مع المصريين. وسألني إن كنت أذكر شيئا عن الموضوع ...قلت له إن لي عما توفى في هذه الحرب ،لكني لا أعرف التفاصيل ...هذه أمور مرّ عليها خمسون عاما ....لا أعرف لماذا في حقبة ما كان المصريون يكرهون الإسرائيليين؟ لكني لاأهتم بفهم هذه الأمور..ربما ذهبت للحرب لو طلب مني هذا لسبب واحد وهو كسر روتين الحياة."[١٥٠]

ويقول كذلك "لم يكن هذا الدرس التاريخي يعنيني في شيء ...لا يهمني كيف كانت الأمور ولا كيف صرنا ما نحن عليه..ما يعنيني هو ما نحن الآن وما سنكون.."[١٥١] ،وبذلك يظهر انفصال الإنسان عن ماضيه وماضي أمته وعدم اعتنائه بمعرفة تاريخه ،وهذا الانفصال يجعل الشخصية تصبح كما وصفها الكاتب فهي شخصيات أنانية شهوانية لاتهتم سوى بالمتعة فقط. و من الجدير بالذكر أن هذه القضية تحديدا تعتبر متحققة في الوقت الراهن بنسبة مخيفة ،حيث قلّ الاهتمام بقضية الصراع العربي الإسرائيلي ،بل هناك أصوات تميّع هذه القضية ،وتصالح وتداهن العدو الصهيوني .ويزداد هذا الأمر مع الناشئة بقوة، فيجهلون تماما تاريخ هذا الصراع .

ويظهر هذا الملمح أيضا في مواضع مختلفة من رواية قواعد جارتين ،فمثلا حرص القادة في جارتين على حذف كل ما يتعلق بغفران عندما كانت رامية للمنصة من كتاب(رامي المنصة) حيث "أزالوا السنوات الخمس التي شغلتها تلك الضابطة من الكتاب ،أزالوا كل شيء يخصها ."[١٥٢]

ويبدو ذلك واضحا أيضا من التاريخ الذي تم طمسه ولا يعلم عنه أحد شيئا ،ولكن حرص الأقدمون على كتابته على جدران كهف من الكهوف ،كما يظهر من المقاطع السردية الآتية:

-"لا يقتصر الأمر على هذه المخطوطة بل هناك تاريخ كامل داخل ذلك الكهف .رسم ودون قبل قرون على جدرانه وسراديبه الداخلية المتشعبة بباطن الجبل.هناك تأكدت أن أصحاب الأمانة الحقيقيين هم النسالى أنفسهم ،وأن تاريخ هذا البلد فيه من الحقائق الكثيرة ما تم تزييفها ..وأنه قد آن للنسالى أن يستردوا حقهم الغائب لقرون طويلة ."[١٥٣]

-"طمس كل شيء بخصوص ذلك العهد الدموي..لم يعرف الأشراف كتابا واحدا تحدث عنه...ولم تتكلم أغنية واحدة عن يوم الغفران الذي ذبحت فيه حيوانات الصحارى ...كان الملك ماكرا بعدم علم عامة الأشراف شيئا عن ذلك العهد من سادة الأشراف ..ليصير رمادا ذرّته رياح السنوات وكأن شيئا لم يكن (...)

-من دوّن هذا التاريخ؟

-قال الرجل:

-لم يُذكر شيء عنهم ..المؤكد لي أنهم من أجيال متفاوتة ،كذلك أعتقد أنهم من الأشراف وليس النسالى ،ربما شريف صار نسليا ..ربما كان أحد أجدادي الذين أوصوا بتوريث مخطوطاتهم جيلا بعد جيل ،لا أعرف ،لكنه يبقى تاريخا حقيقيا قُدر لي أن أجده."[١٥٤]

وهكذا يطمس التاريخ ويزور لأسباب مختلفة ،فالتاريخ عموما يكتبه المنتصرون لذلك يبقى جزء كبير منه غير معروف وأحيانا كثيرة مزور وحتى لو لم يتعمد كاتبوه تزويره فإنه يبقى وجهة نظر واحدة ،فقلة نادرة هي التي تكتب بموضوعية ،وإنما يتأتى ذلك من نظرتهم الشمولية للأمور وللحقائق، فلا أحد منا يمتلك الحقيقة إنما كلنا نحاول الاقتراب منها ورؤيتها من منظورنا الخاص،وهو منظور قد يتسم بالشمولية أو بالقصور، بالموضوعية أو بالذاتية ،قد يصيب وقد يخطئ .وخلاصة الأمر لانملك الحقيقة إنما نملك صورة ذهنية عن هذه الحقيقة .ولا

شك أن إخفاء التاريخ يفصل الإنسان عن ماضيه ويشوه حاضره ومستقبله ؛لأنه بناء على الماضي يكون الحاضر والمستقبل .فالتاريخ مكون أساسي لشخصية الإنسان ،بل وتتحدد أهدافه في الحياة بناء على هذا التاريخ وقيمته بالنسبة إليه.

(٤١٣)مراقبة الأفكار وتزييف الوعي:

كلمات أساسية تعني الحرية ،تعني التقدم ،تعني التطور ،تعني هدم السلبي، تعني الإبداع والابتكار وبدون هذه الكلمات نضمن لك مجتمعا سلبيا خانعا متخلفا تستطيع السيطرة عليه بسهولة ،وما هذه الكلمات إلا (الثقافة الحرة ،القراءة الحرة ،التفكير الحر) ،لذا تحرص الأنظمة الشمولية على التحكم في هذه الأمور ،ولا تقدم لهم الدعم أبدا ،لأنه بدعمهم يكون انتهائهم ،فأول من يتم محاربتهم هم من يفكرون ، هم أصحاب الثقافة والفكر وحملته ، لأنهم يسعون إلى إدراك قضايا المجتمع والوعي بها وبمجريات الأمور حولهم ،ومن ثم إلى توعية المجتمع .في حين أن هذه الأنظمة تسعى إلى تزييف الوعي حتى تستطيع تمرير كل ما تريده للشعوب الغافلة. وطبيعي أن يكون هذا المظهر وارد في كل الروايات الديستوبية سواء العربية منها أو الغربية، ولقد سبق لنا ولمسناها بوضوح في روايات جورج أورويل سواء في (١٩٤٨)أو في(مزرعة الحيوان) .ونفس هذا المظهر نجده في الروايات العربية ،فقد ركز عليه أحمد خالد توفيق في روايتيه. ففي يوتوبيا يتعرض الكاتب للقراءة والثقافة ولكن ليس من منظور مراقبة السلطات لما يقرأ ،بل للمرحلة التالية لذلك وهي قيمة القراءة نفسها ووجودها وسط الناس سواء في طبقة الأغنياء أو حتى الفقراء،بل والأثر الذي تحدثه على الأشخاص وذلك طبعا حال وجودها .

في **يوتوبيا** تجد أن مفردات (الثقافة...التفكير الحر...القراءة ...) أصبحت سلعة سخيفة بالنسبة للبشر ،بالنسبة للأغنياء والفقراء على حد سواء، وأصبح دور القراءة معكوسا فبعد أن كانت لتنمية الوعي أصبحت للغياب عن الوعي.

وقد كرر الكاتب هذه العبارة مرتين ، مرة مع راسم اليوتيوبي ومرة مع جابر (الأغيار) وقد آثر أن يجعل الشخصين محور القصة من المثقفين _وفقا لمفهوم الثقافة الخاص بمجتمعهم_وذلك يجعلهما أفضل من في المجتمعين (فالصراع هنا دائر بين الشخصين الأفضل ، لنر ما الأثر الذي ستنتجه هذه الثقافة عليهم ،هل ستؤدي إلى فعل أم أنها مجرد كلمات لا قيمة لها.

يدور الحوار التالي في يوتوبيا بين سالم بيه وراسم :

"قال سالم بيه:" أنت تقرأ كثيرا ..أنت مجنون..

قلت له إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات .لا أفعل بهاشيئا سوى الغياب عن الوعي :في الماضي تصور هذا كانوا يقرأون من أجل اكتساب الوعي .أنا لم أعد طفلا ...لقد تجاوزت السادسة عشر ة ...قرأت كل كتاب وقع في يدي حتى اكتفيت ..إن الكتب سلعة نادرة هنا لكني وجدت كنزا منها عند سالم بيه رئيس تحرير تلك الجريدة الذي يعيش على بعد مائتي متر من بيتي ،لديه كتب كثيرة جدا ،وقد بدأت القراءة على سبيل التحدي لأن مراد لا يقرأ وكذا لارين ،من الجميل أن تفعل شيئا لا يطيقانه .لسبب ما عشقت هذه الطريقة ووجدت فيها عوالم سحرية أنفذ إليها كلما أردت."[١٥٥]

وفي حوار بين جابر وعزة والمتشابه كثيرا مع الحوار السابق تقول عزة:"أنت تقرأ كثيرا ..أنت مجنون ..قلت لها :إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات .لا أفعل بها شيئا سوى الغياب عن الوعي .في الماضي –تصور هذا–كانوا يقرأون من أجل اكتساب الوعي .حكيت لها عن كثير عزة فقالت لي:(اتنيل) فاتنيلت."[١٥٦]

يبدو لنا من خلال هذين الحوارين أن كلا من جابر وراسم اتفقا على أن القراءة هي نوع من المخدرات للغياب عن الوعي، وكلاهما يلاقيان استهجانا ممن حولهما من أجل هذا الفعل، وربما يكون ذلك بالطبع إشارة واضحة لعزوف المجتمعات العربية عن القراءة بكل طبقاتها.والأمر الآخر وهو شديد الأهمية يتعلق بالعلاقة بين الثقافة والقراءة والفعل ،بين الكلمات والأفعال، هل سيكون

القارئ كمثل الحمار يحمل أسفارا ، يحمل معرفة ولكنه لايفيد ولايستفيد بها ولاتنطبع على شخصيته وأفعاله، وذلك حال الكثيرين. وهو واضح في شخصية راسم تحديدا، فلم تمنعه قراءته ومعرفته وثقافته من الانسياق وراء مجتمعه اليوتوبي الظالم والمستبد للآخر ، ومن الانسياق للعالم الحيواني،وربما كانت صورته هذه كصورة بعض المثقفين الذين يملؤون عقولهم بالكتب ولكنهم يرضون بكل ظلم محيط بهم بل ويشاركون فيه .ورغم أن جابر من عالم الأغيار الفقراء الذين تعتبر الثقافة والقراءة بالنسبة لهم رفاهية غير مطلوبة_وفقا للبعض_ نظرا لعدم وجود أساسيات الحياة ،إلا أنه تستشعر _من خلال وصف الكاتب طبعا_أنه مختلف عن باقي طبقته ،وربما كان ذلك راجعا إلى قراءته ،لذا نجده في بعض المواقف ارتقى بنفسه ،وحقق إنسانيته،ولم ينساق للحيوانية التي انساق إليها غيره.

هكذا كانت القراءة في يوتوبيا ،أما في (ممر الفئران) فالأمر مختلف بعض الشيء ،حيث الأفكار هنا يمكن أن تفضحك فتعاقب عليها ،فلابد في هذا العالم الشمولي أن تراقب الأفكار،فهي التي تهد الأنظمة وهي التي تحرك الماء الآسن الراكد.ويذكر الكاتب ذلك غير مرة في روايته فيقول مثلا :" ماهر يريد الموت ويشتهيه بقوة..التعامل مع مشروع شهيد يشتهي الموت لعبة جد خطيرة .يمكنه أن يدمرك في أي لحظة أو يؤدي لافتضاح أمرك بسهولة .الأبطال يحترقون ويحرقون من هو معهم .لكنه كان يعرف أن عليه المضي قدما في ممر الفئران .لاسبيل لأن يتراجع وإلا فلسوف يظفرون به،في هذا العالم يمكن لرائحة أفكارك أن تفضحك كما تفعل غازات البطن بالضبط فلتتماسك على الدرب يا صاحبي.لا تتراجع."[١٥٧]

وفي رواية **(قواعد جارتين)** يقول الطبيب :" كانت هذه حقيقة مؤسفة ،كانت ثقافتنا عن البلدان الأخرى ضعيفة للغاية ..لم يكن مسموح لنا بقراءة أي كتب غير مناهجنا الدراسية..ولا أذكر أن مناهجنا قد ذكرت شيئا عن جارتين

تلك .كانت بلدنا تضع الكثير من القيود على ما يقرؤه العامة .حتى أنني لم أتصفح ورقة واحدة من كتبي الطبية قبل موافقة ضابط أمن بلدتي."[١٥٨]

وما محاربتهم الثقافة والفكر والقراءة إلا لتزييف الوعي وإحياء الجهل ،وذلك لأنه لا فكر دون حرية ،فالفكر يعني الحرية،وهذه الأنظمة المستبدة لاتريد حرية ،ولاتريد فكرا لأنه حينها ستسير الأمور عكس ماتشتهيها، لذا الأفضل لها أن يتكون عامة جهلة .وهذا الملمح ثابت في كل الروايات الديستوبية ،فيظهر ذلك بوضوح في(ممر الفئران) حيث يسم الكاتب عامة الشعب بأنهم (جهلة) وتحرص الأنظمة التي تحكمهم على أن يبقوا كذلك ،كما تحرص على تزييف وعيهم، فالظلام بالنسبة لهم هو الحقيقة والنور هو الخطيئة ،وهكذا زيفوا وعي الشعوب فيقول "كان تلقين القومندان المستمر وغارات الشرطة وقصص الإعدام اليومية ،قد علمت الناس أن النور خطيئة كبرى." [١٥٩] وقد أقنعوا الشعب بأن النورانيين هراطقة ،وأنهم يلوثون مجتمعهم وبالتالي يستحقون الإعدام.ويظهر ذلك في عمليات الإعدام التقليدية التي يصفها الكاتب ويحكي عنها: "في ممر الفئران الضيق، كان يمشي في الدرب يتحسس الجدران ،عندما سمع من ينادي بصوت جهوري:

–تعالوا..تعالوا واسمعوا مصير الهراطقة ..تعالوا واسمعوا نهاية المجدفين.

صوت صخب..خطوات هناك زحام في مكان ما ..الموقف يبدو مألوفا .ثمة شيء مماثل مر به من قبل .ثم سمع الصوت الجهوري يتلو:

–بأمر القومندان الهرطيق كمال ثروت قد ارتكب جريمة الضياء،جرب أن يستولد الضوء بخلايا بيولوجية،وقد أبلغ عنه جيرانه لقد ظفرنا به ولسوف يلقى عقابه المستحق.

كان هناك من يصرخ بصوت مذعور :

–أقسم لكم أنني....

لكن لم يكن ثمة ما يقال.لا يمكن تكذيب النور..وسط هذا الظلام يصير النور فاضحا مستفزا بحق."[١٦٠]

لم يعتد الناس على عمليات الإعدام التقليدية فحسب ،بل يخبرون عن بعضهم البعض، وينادون بالمزيد من الألم للمعدم.صار الناس يتلذذون بالألم ،نزعت الإنسانية منهم . يقول في مشهد من المشاهد:

"هتف أحد الواقفين :

–يستحق

وقال آخر في رضا:

–إنما لمما يثلج القلب أن تتحقق العدالة في هذا الزمن.

–فلينصر الله القومندان.(.....)

سمع من يقول: فليتألم!

ومن يقول :فليتعذب!

ومن يقول: فليتوجع!

وقالت امرأة خشنة الصوت متوحشة النبرات: الإعدام بالكلاب ممتع ،لكني حضرت إعداما بالحمض ..كان أكثر إثارة يدلون به في إناء الحمض ببطء ،لدرجة أنه يشم رائحة لحمه المحترق.

كان هناك مناخ عام من الانتشاء بالعدالة ،لكن الشرقاوي أدرك أن الرائحة الغالبة هي أقدم عاطفة شعر بها الإنسان:السادية،مهرجان الدم في سيرك روماني .ابتعد وهو يرتجف. كما هم العامة الجهلة في كل مكان وزمان ..يعشقون العبودية ويهوون الخضوع ويقنعون أنفسهم أنهم يكرهون ما يكرهه الحاكم بل تطيع نفسك أولا .فإذا حاول أحد أن يوقظهم من غيبوبتهم مزقوه تمزيقا."[١٦١]

** في هذا العالم تجد الأخ يبلغ عن أخيه لأنه يمتلك النور ،وبهذا يصبح– وفق منظوره–مواطنا صالحا،مثلما يدل عليه المقطع السردي القادم:"حضر الشرقاوي عدة حالات إعدام في الأيام التالية(...) أكثر المشاهد..معذرة أقصد المسامع التي أثرت فيه ،هي عملية الإعدام لهرطيق كان المبلغ عنه هو أخوه ..أخوه الذي أدرك أن أخاه يحتفظ بنظارة رؤية ليلية وأبلغ الشرطة ..لقد صار

مواطنا صالحا عظيما ومثالا يحتذى ،وكان يستمع لصوت تمزيق جسد أخيه وهو يهلل فرحا ثم يستحيل تهليله بكاء هستيريا يمزق نياط القلوب ..ثم يستحيل البكاء ضحكا .التضحية بأخيك عمل نبيل بحق ..التضحية الأعظم .الرضا بالظلام لم يكن سهلا.هذه عملية تربوية معقدة تبدأ من الطفولة .الظلام هو الشيء الطبيعي ..ثمة خدعة زائفة أقرب للكفر اسمها النور ،لا يخدعنكم من يتكلمون عن النور والشمس فهم خونة منافقون يريدون لكم الهلاك."[١٦٢]

ومن مظاهر تزييف الوعي الخطيرة سواء (للشعوب \الأفراد)إقناعهم بما يؤمن به الحاكم ،بقيمه وأفكاره حتى يصيروا لايرون الصواب والحق إلا آت منه فقط،من منظوره هو،فهو ممثل الإله على الأرض وكلمته هي الحق ومادونه هو الباطل .بل يصل بهم الأمر إلى إقتناعهم بأنهم بدونه تعساء تائهين ضائعين ،فهم أحسن حالا معه ،وهاهم أهل ممر الفئران لا يؤمنون إلا بما يؤمن به قائدهم ،ولايرون السعادة دون سلطة أبوية غاشمة ،يعبر عن ذلك الكاتب قائلا:" يهللون ممتدحين العدالة الناجزة ،وهلل الأطفال فرحا ترقبا لهذه التسلية الشائقة التي لا تقابل كل يوم .خطر للشرقاوي أن الثورات لا تقوم ضد الطغاة ،بل تقوم ضد البلهاء أولا .عندما يصير ثلاثة أرباع الشعب ضدك وقد آمنوا بأن الطغيان أمر إلهي ،وأنهم أسعد حالا تحت سلطة أبوية غاشمة ..عندها يصيرون متأهبين لرجمك."[١٦٣]

وهذه المظاهر والمشاهد –سابقة الذكر– متشابهة ومتقاربة في مضمونها وملمحها العام مع رواية(١٩٨٤) لجورج أورويل.

(٤١٤)التحول القيمي:

ليس سهلا تغيير المواقف ،وليس سهلا أن تكون في جهة \فريق، مؤمن بأفكاره ومبادئه ومواقفه ومدافعا عنها بقوة، يرون فيك مخلصا وقائدا، وفي لحظة الحسم تتحول إلى الجهة المعاكسة ،إلى الجهة التي ظللت تحاربها لفترة طويلة. الانقلاب من الحق للباطل ،من المظلوم للظالم ،من المعتدي عليه إلى

المعتدي، تلك الصورة منتشرة في الروايات الديستوبية،ولما لا ؟؟ أليست الديستوبيا خالية من الأخلاق.

عرض أحمد خالد توفيق هذه الصورة في روايته "ممر الفئران" فشخصية (الشرقاوي)الذي انضم للنورانيين وآمن بهم وبمبادئهم وجاهد معهم وشاركهم أحلامهم وآلامهم وثورتهم ،ولكن فجأة في اللحظة الحاسمة انقلب ضدهم وضيع حلمهم وكان السبب الرئيس في فشل الثورة ،يُحدِّث نفسه قائلا:"هو مؤمن أنه لا جدوى على الإطلاق ،لكن هناك جدوى أكيدة في الانضمام لهذا العالم السحري .إن لم تستطع قهرهم فلتنضم لهم."[١٦٤]

ويقول أيضاعلى لسان الشرقاوي :"العرق يعمي عينيك ..أنت لعبت دور يهودا ،بدران الذي خان سميك أدهم الشرقاوي ،لكنك برغم كل شيء اخترت الصندوق الصحيح ،لعل هذا هو خيارك مذ جئت إلى العالم ،لكنك لم تدرك هذا إلا الآن ..إن كان لا منجي من الظلم فمن الحكمة أن تكون مع الظالمين لا المظلومين. وبرغم قذارة الاختيار فهو يشعر براحة عميقة .شعر بأنه شجاع من يقبل أن يكون نذلا رجيما يلعنه الجميع فلابد أنه شجاع."[١٦٥]

*"ارتجف الشرقاوي وهو يدرك الحقيقة .كان هو المختار فعلا..منذالبداية كان المختار ،وكان لقدومه لهذا العالم غرض واضح محتوم .فقط ثمة مشكلة بسيطة هي أنه المختار لعالم الظالمين وليس المظلومين .لقد أرادت لك الأقدار أن تكون طاغية لا ضحية .قاهرا لا مقهورا .أنت تنتمي للنور ولسوف تنعم به وتسحق من هم مازالوا في ممر الفئران."[١٦٦]

ولربما كانت هذه الصورة استكمالا لرؤية الكاتب عن السادية الموجودة في البشر ،والتي تجعل بعضهم يتلذذون برؤية الآخرين معذبين ،وهي قريبة من وجهة نظر عالم النفس ستانلي ميلغرام والتي سبق وعرضناها.لذا نجد الشرقاوي يتلذذ الآن بانتصاره ولا يشعر بأي ألم حتى حينما رأى رفاقه معلقين بين الجبلين :"يمكنك أن ترى ماهر وباولا ورامي ورفاقه معلقين بين الجبلين ،وقد تدلت جلودهم المسلوخة ..من أجلك أنت يسعى رجال الشرطة في ممر الفئران

بنظاراتهم وينتشر كهنة الظلام ،ويتم تكفير الضوئيين من أجلك أنت ترتعش الفتيات وهن يحلمن ليلا ،ويعوي الذين تمزقهم الكلاب ،ويتحسس الناس الجدران الرطبة في الظلام ويخشون الكلام بصوت عال فقد يسمعه بصاص .أنت قد ظفرت بالقوة..قوة خارقة لا تصدق ..قوة ظمأت لها كثيرا حتى إنك استحققتها فعلا .لن تعود إلى ممر الفئران."[١٦٧]

وربما كان هذا المظهر الديستوبي تحديدا صورة لما حدث عقب الكثير من ثورات الربيع العربي التي أظهرت الكثير من الأشخاص على حقيقتهم. وظهر الكثير من المتلونين الأفاقين الذين تتغير مواقفهم بتغير الظروف حولهم ، ويسيرون كما نقول (مع الموجة)،وينضمون للفريق الذي يظنونه منتصرًا.

(٤١٥) العبثية واللامبالاة:

هناك الكثير من الصفات التي تتسم الشعوب بها في المدن الديستوبية منها الفقر واللاأخلاق وانتفاء الوطنية والشهوانية والأنانية والكسل والكثير والكثير من الصفات وربما يكون المحرك لهذه الصفات جميعها هي اللامبالاة بمعنى فقدان الناس الاهتمام بالأمور ونتائج الأحداث ،وبالتعبير المصري كما نقول(هيحصل ايه أكتر من كده) فمهما جاء لن يكون أكثر مما مضى (يا ما دق على الروس طبول) ،واللامبالاة قد تكون نتيجة لكل هذه الأفعال التعنتية والظلم والقهر الذي مر به الشعب ،فتكونت لديه مناعة من كل الأحداث وأصبح لا يؤثر فيه شيء بسهولة ، ولذا نجد أن كثير من كتاب الديستوبيا يركزون على هذه الصفة تحديدا لأنه لو تبدلت وتحولت لاهتمام لتغير الحال كثيرا ، كما أنه من المحزن جدا أن تجد جزءًا يهتم بينما البقية يشاهدون فقط ،ونتيجة لهذا الموقف يتحول(الفاعل \المهتم) إلى كبش فداء للمجتمع كله .

تظهر هذه الصفة في كل الروايات الديستوبية محل الدراسة بنسب مختلفة، ففي(يوتوبيا) لا يهتم الأغيار بما يحدث لهم ولا يهتمون بمقاومة الظالم أو بتغيير حياتهم نهائيا ،وقد بين الكاتب ذلك في أكثر من موضع وخاصة حينما

قال أن الأوغاد والخاملين قد جمعوا كلهم في وطن واحد ،لذا في نهاية الرواية انقلبت هذه اللامبالاة إلى اهتمام ومبالاة حينما حدث متغير قلب حياتهم ، وهو قتل جابر ،فكان قتله بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ،فتحولوا من حالة العبثية واللامبالاة إلى اهتمام فنتجت من هنا الثورة على اليوتوبيين ،لذا الاهتمام والمبالاة هو بداية الثورات على الأوضاع وتغييرها.

وهذه اللامبالاة نجدها حاضرة أيضا في رواية ممر الفئران ،حيث لا يهم ماذا يحدث حولنا ولا من الظالم ومن المظلوم الأهم هو أن نحيا ،لذلك يتم التضحية بالقلة الثائرة والمتمثلة هنا في هذه الرواية في النورانيين ،بل إن أكبر ممثل لهذه الصفة في الرواية هو الشرقاوي نفسه (الشخصية الرئيسة في الرواية) الذي كان لديه في حياته كل شيء ومع ذلك لا يشعر بالسعادة ويشعر بحالة من العدمية والعبثية ،وتفتك به الأسئلة الوجودية ، وحينما تغيرت السياقات اهتم أو قل دفعته الظروف إلى الاهتمام والانضمام إلى النورانيين، ولكن بمجرد أن واتته الفرصة انقلب اهتمامه الزائف بقضايا الشعب وحقوقه إلى لامبالاة به وبمصيره وبمصير أصدقاءه ، وبمبالاة واهتمام بنفسه فقط ،ومن هنا كانت نقطة التحول الخطيرة في الر واية،لذا إن شئنا القول بأن هذه أخطر الصفات على الإطلاق وهي التي ربما تقلب المدن من مدن ديستوبية يساهم شعوبها في ديستوبيتها إلى مدن تتسم ببعض المظاهر اليوتوبية .ونفس الأمر نجده ظاهر في رواية قواعد جارتين حيث لا يهتم العامة بالثورة على الأشراف ،ولا يهتم الكثير منهم بالانضمام إلى السيدة غفران في معركتها ضد الأشراف ،وحينما اهتم بعضهم وانضموا إليها فترت همتهم وعزيمتهم بمجرد أن زادت الخسائر . أما في رواية (عطارد) فيظهر هذا الأمر بقوة ،حيث يكبره الكاتب و يركز عليه،فهناك حالة غريبة من اللامبالاة المنتشرة بين الناس ،والكاتب يرصدها في زمنيين(٢٠١١)و(٢٠٢٥) ويكمن الفرق بين الزمنيين أنها في الأولى أقل وطأة وانتشارا من الثانية ،حيث كانت هذه الصفة موجودة بين الناس ولكنها لم تكن معممة على الكل .

الاهتمام بأمور المجتمع وقضاياه موجود في قلة من الناس في الزمنيين ولكن بقية الناس لا يبالون بمن يقاوم ومن يحارب من أجل القضية الكبرى ،ويستشرف الكاتب تطور هذه اللامبالاة ،فيسرد مشاهدا متتالية للامبالاة الناس بكل أشكالها. فهناك –مثلا–مشهدا يدور عام ٢٠١١م حيث رجل الزبالة الذي يعلم باغتصاب الفتاة التي تعيش في كوخه –والذي سبق واغتصبها هو الآخر –بشكل متكرر من قبل مجموعة من الشباب وهو لا يبالي بنجدتها ولا يحاول حتى ،وبعد انتهاءهم منها يذهب ليغتصبها هو الآخر ثم يقتل نفسه.وكذلك مشهد رجل الكلاب الذي يعلم ما يحدث ويعلم أن رجل الزبالة يغتصب تلك الفتاة، ولكنه هو الآخر لايبالي ويشاهد فقط.[١٦٨]وهناك مشاهد تتعلق بالأطباء الذين لم يعد لديهم القدرة على التعاطف مع المرضى،وأصبحوا لايبالون بهم وإن كان ذلك ناجما عن تكرار الحوادث عليهم واعتيادهم عليها.

ويركز الكاتب بقوة على لامبالاة الناس تحديدا بمن يقاوم من أجل قضايا الوطن ،وهذا الأمر نلحظه على الخطين الزمنيين في الرواية، ففي الخامس والعشرين من يناير لم يأبه إلا القلة من الشعب بالمقاومة ،بينما اتخذ البقية صف المشاهدة والترقب فقط. وسريعا ملّ البقية من المشاركة أو المقاومة حتى بأبسط الأمور.

وأظهر الكاتب ذلك بصورة أكثر فجاجة في الخط الزمني الآخر ،فحينما احتل فرسان مالطا القاهرة استسلم الشعب بسهولة ولم يقاوموا ،وتقبلوا الاحتلال بشكل رحب .يقول الكاتب: " لم يقاوم المصريون المحتل هذه المرة ،وعندما عادت الاتصالات بعد أ سبوع من الانقطاع ،تواردت أنباء عن مقتل عشرين مواطنا أثناء انتشار قوات فرسان مالطا ،وهو رقم صغير جدا إذا ما تمت مقارنته بما يحدث عادة في الحروب ،بينما لم يكن هناك أي معلومات عن خسائر الجيش(....) وخلال تلك المدة لم تقرأ كلمة (احتلال)في أي من الصحف، بل لم تسمع قط. كان الأمر شديد الغموض، أعني تقبل المصريين للمحتل وانعدام مقاومتهم له، تناسى الجميع الحكاية برُمتها واستمروا في حياتهم المعتادة ،قاموا

بالتعاون مع دوريات جيشي فرسان مالطا المرورية في المدن المحتلة، واحترموا الانتظار لدقائق قليلة في طوابير ليتم التأكد من سلامة تراخيص السيارات.."[١٦٩]
ويعبر عن هذه الحالة بشكل جيد قائلا: "هناك جنون هادئ أصاب المصريين وجعلهم يقبلون بكل ما حدث خلال الشهور الماضية ،وكنت أرى أن رجال الشرطة أصابهم الجنون نفسه ،راحوا ضحيته كما راح باقي المصريين من قبلهم."[١٧٠]
ومن مظاهر اللامبالاة التي أصابت المصريين في هذه المدينة الفاسدة وقوفهم لمشاهدة شخص ينتحر من أعلى الكوبري ولايحاولون نجدته بل يلقون عليه الحجارة وهو مشهد غاية في العبثية واللامبالاة[١٧١].
يظهر هذا المشهد في الفقرة التالية:" أخذ جسد الرجل يتأرجح بشدة ،وارتخت ذراعاه إلى جانبه ،وانساب البول غزيرا من قضيبه ،وجرح الحبل الخشن رقبته فجزها وأخذ الجرح ينزف بغزارة ليغطي الدم صدره وبطنه ويختلط ببوله ويسقطا على الأرض وعلى الواقفين .نظرت إلى الجمهور فوجدتهم واقفين يحدقون في تركيز بالغ بالجثمان المتأرجح ،يتساقط الدم على وجوه بعضهم فلا يعيرونه اهتماما،ورفع واحد منهم يده ليمسح قطرات من الدم سقطت على عينه ثم تابع التحديق في الجثمان.كانوا صامتين لكنهم غير مأخوذين بما يرونه ،كطلبة يتابعون محاضرة رغبة في الفهم .كانت السيجارة لازالت معلقة بين شفتي الجثمان ،مشتعلة يرتفع دخانها قرب قناعه ،استقرت هناك على الرغم من تأرجح الجثمان الشديد ،وفكرت أن طرفها التصق بشفتي الرجل كما يحدث عندما تترك السيجارة لدقائق طويلة بين الشفتين .كانت السيجارة لا تزال مشتعلة حينما رأيت أول حجر يقذف نحو الجثمان.ثم تابع الناس الرجم ،فرجموه بحجارة الطريق وبأخشاب وأكياس زبالة مكورة وأحذية وحبات طماطم ،وبعد دقيقة سمعت صوت اطلاق النار ،والتفت خلفي لأجد أحدهم يوجه مقروطة نحو الجثمان ويطلق النار مرة أخرى وثالثة ورابعة ،ثم أدركت أنه لا يصوب نحو الجثمان ،وإنما يصوب نحو الحبل يريد قطعه .كان الحبل يتدلى من أسفل سور

الكوبري ،ولا يمكن لأحد أن يقطعه وهو واقف على سطحه أبدا.ثم رفع الكثيرون مقاريط وأخذوا يطلقون النار على الحبل ،وتناثر الخرز الرفيع فأصاب الجثمان والحبل والكوبري وارتد عنه ليصيب الواقفين الذين لم يتحركوا .وأصبح الجثمان مزركشا بخرز كثير ثم انقطع الحبل وهرع الناس نحو الجثمان."[١٧٢]

وكذلك لامبالاة الناس بمشاهد قتل الناس لبعضهم البعض ،فهذه المشاهد أصبحت روتينية متكررة فالقتل أضحى مثله مثل الكلام شيء طبيعي، لا شيء فيه يستدعي الانتباه. وكأن الناس فقدوا العقل والشعور. وهذه اللامبالاة هي التي اتخذت مبررا من قبل المقاومة المصرية لقتل المصريين بشكل عشوائي لعلهم يتحركون فيقاوموا ،ولكن هيهات ..هيهات ،فرغبتهم في الموت كانت أكبر بكثير ويظهر ذلك من المقطع السردي التالي: "هدفنا الآن دفع الناس للثورة على المحتل ،نحن نهندس ثورة شعبية جديدة...أفهم تماما ما يقصد بتلك العبارة فخلال السنوات الماضية كان الناس يقادون كقطيع الخراف إلى الانتفاضات والثورات والمظاهرات ،وقدناهم نحن إلى الثورة على ثورة قادهم إليها آخرون ، يساعدنا الإعلام في كل خطوة وفي كل تحريض على الحركة أو تثبيطها."[١٧٣]

ويرتبط بهذه اللامبالاة التي أصابت الناس رغبتهم في الموت [١٧٤]فكانوا يقفون أمام عطارد ليقتلهم ،وبعضهم لا يقاوم البلطجية لكي يتخلص من حياته بدون أن يخسر آخرته. وذلك كله نابع من اليأس والشعور بالعدمية وفقدان الهدف من الحياة .

يقول الكاتب على لسان عطارد: "سنقتل الناس لاريب ،نحن نقتلهم منذ سنوات طويلة ولم يعد الأمر مزعجا لنا ،سنقتلهم ولن يحدث شيء، سنقتلهم ولن يثوروا، لن يتحركوا ليحطموا ويحرقوا مقرات المحتل(...)بدا الأمر كله عبثيا ،وبدا أننا سنقتل الناس لمجرد الاستمتاع بذلك."[١٧٥]

**ومن الجدير بالذكر أن الكاتب يستعرض تاريخ ردود أفعال المصريين تجاه المحتلين بشكل عام ،فقد رحبنا بكل المحتلين وكأن الاحتلال مرغوب فيه ولكن بشروط ،وعندما تخلصنا من الاحتلال أغرقنا أنفسنا في البحث عن هويتنا وعن

مسارنا الذي نريده ،وبدا أننا تهنا وأصبح حالنا أسوأ، يقول:"عشنا تحت الاحتلال قرونا عديدة ،لم نقاوم قط ،وإذا نظرنا إلى كفاح باقي الشعوب لوجدنا أننا رحبنا بكل المحتلين، يقولون إننا كنا نرحب بالمحتل فقط كي يطرد المحتل الذي سبقه .وكأن الاحتلال مرغوب فيه لكن بشروط .وحالما تخلصنا من آخر محتل أجنبي بدأت التساؤلات ولم تنته، هل هذه ثورة أم انقلاب عسكري ،هل نحن دولة اشتراكية أم رأسمالية ،هل نهتم بأنفسنا فقط أم نتوحد مع العرب(....)ثم جاء ما يقرب من نصف مليون فارس مالطي وأنهوا كل هذا التخبط .كل هذا الجدل غير المفهوم .كل هذه النقاشات والحوارات ،كلهم كف عن طرح الأسئلة مع أننا لم نسمع إجابة واحدة شافية خلال عشرات السنين .ما حدث احتلال صريح حقيقي صادق واضح جميل لاشك فيه ،لم تعد هناك أقلية، لم تعد هناك كتلة حرجة ،لم تعد هناك معارضة ،لم تعد هناك أحزاب أو برلمان أو انتخابات ،كنا جميعا ضد الاحتلال ولم يقاومه أحد .ولما تحرك عدة أفراد وكونوا مقاومة قوامها ضباط الشرطة لم يأبه لهم ولم يعاونهم مواطن واحد ،وحينما قتل الناس برصاصات فرسان مالطا لم يعترضوا، وحينما قتلناهم نحن لم يتهمونا بالجنون ،وحينما سأقتلهم بعد أيام فإنهم سيرفعون أكتافهم لا مبالين ويمشون بهدوء مبتعدين. فقدنا القدرة على الاستمرار وتحولنا إلى كتل صماء ،قتلتنا اللامبالاة ولم نعد قادرين على اتخاذ أية مواقف وكأننا جوامد أو أموات ،لكن حتى الموتى سيعترضون وسيندمون ،الناس في يوم القيامة سيبكون نادمين على ما فعلوا ،الناس في الجحيم سيصرخون من شدة العذاب ،لن يقفوا هكذا ليعذبوا برضا تام ومن دون مقاومة .واللواء السيوطي يظن أن الناس سينتفضون لأننا سنقتل منهم بضعة آلالف؟

يظن الرجل ابن عصر الوطنية أن الناس يكرهون المتاهة ولايدرك أن الجميع قعد ونام واستقر ودفن نفسه داخل المتاهة،تحت جدران المتاهة ،لا يعلم أنهم يئسوا منذ مدة.وأنهم الآن فيما بعد اليأس."[١٧٦]

إذن فقدان الأمل واليأس من كل ما في الحياة هو سبب هذه اللامبالاة ، والاستسلام التام لكل ما يحدث معهم ، وما يحدث حولهم. والفشل المستمر هو سبب رئيسي لهذا اليأس.

(٤١٦)التحلل الديني والخلقي:

من المظاهر الثابتة في المدن الديستوبية انتفاء الأخلاق وفقدان الدين ،ففي (يوتوبيا) مثلا نجد أن (البغاء) أصبح ظاهرة حقيقية أقوى من القانون وأقوى من العرف ،ولم يعد الحرمان الجنسي [١٧٧]من مشكلات العصر ،فمع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس أسهل شيئ يمكنك الحصول عليه.

وأصبح لا يستدل على ديانة الشخص نهائيا ،فلا تعرف إذا كان مسلما أم مسيحيا.

يقول الكاتب:" لا يمكنك أن تعرف دين أي واحد هنا مالم ينطق بقسم من نوع(المسيح الحي) أو يصلي على رسول الله،فحتى الأسماء صارت عادية محايدة لاتدل على شيئ (فريد)...(عوض)...(عماد) ..لو كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا فهي أنه لا يعرف شيئا اسمه (التفرقة الدينية) لقد تحققت جنة المساواة الطائفية ولكن بشكل عجيب لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحا .منذ ساوى الفقر بين الجميع ..لم يعد أحد يعرف إن كنت مسلما أو مسيحيا إلا عندما تعلن أنك ذاهب لعمرة أو ينكشف ساعدك. "[١٧٨]

أما في رواية (عطارد) فلا يوجد ما يعرف بالأخلاق في هذا المجتمع الديستوبي ولا يوجد ذكر للدين،انتشرت الدعارة في المجتمع بل وافق مجلس النواب على تقنينها أيضا ،وانتشر تدخين الكربون وهو مادة تشبه المخدرات ولكنها أكثر تأثيرا منها من جهة تغييب الإنسان عن الواقع فهي تذهب الإنسان للعدم ولا تجعله يتذكر ما حدث له وقت تعاطيها.

في تلك المدن الديستوبية هناك تحلل ديني وخلقي في كل الطبقات تقريبا ،فليس هناك أي رادع للإنسان يحيل بينه وبين الخطايا.

(٤١٧)**الدموية:**

هل هناك ديستوبيا بدون قتل ،بدون عنف ،بدون دماء...يستحيل ،لذا لن تجد رواية ديستوبية لا يوجد فيها أحد هذه العناصر ،قد يركز عليها الكاتب ويوجه العدسة إليها فيكبرها ويبرزها بقوة كما في رواية عطارد ،وقد يمزجها بعناصر أخرى كما في بقية روايتنا–محل الدراسة–

تبدأ رواية (عطارد)بمدخل عبارة عن جريمة قتل بشعة _يقال إنها حدثت بالفعل في مصر _ وتفاصيلها :أن رجلًا ميسور الحال يقتل أبناءه وزوجته في عيد الأضحى ويقطع أجزاء منهم ويطبخها ويأكل منها ،بل ويجبر أباه المقعد على أكلها ،ويأكل الأب منها فعلا ثم يموت بعد ذلك، وفي كل ذلك يقوم الرجل بتصوير هذه الأحداث. وبعد أن اكتشف الناس الحادثة وجاءت الشرطة وجدوه يجلس أمام التلفاز ويشاهده غير مبال بما يحدث حوله. واعترف الرجل أمام المحكمة بجريمته وحكم عليه بالإعدام ،وحينما سئل عن سبب قتله لهم علل ذلك بخسارة أمواله في البورصة ،وكان "أداؤه في المحكمة لم يحمل أي حزن ،بل لم يحمل أي شعور،كان كالميت الحي طوال جلسات محاكمته ،لا يستمع إلى ما يدور حوله."[١٧٩]

بهذه الحادثة الواقعية تبدأ الرواية ،وهي تعتبر صورة مصغرة من الرواية ككل ،فشخصيات الرواية يبدون لنا كما وصف الكاتب هذا الرجل لا يحملون أي شعور ،يتصرفون كما لو كانوا (أمواتا أحياءًا)وربما دفعهم لهذه السلوكيات ما كتبه الكاتب على لسان الساعي في نهاية مدخل الرواية حينما قال للضابط عطارد"هذا فنجان قهوة مخلوطة بالأمل ...الأمل مهم ..الرجل قاتل عائلته فقده ...ولهذا قتلهم ."[١٨٠]

تمتلأ الرواية بمشاهد كثيرة جدا من القتل البشع ،ويبرع الكاتب ويتفنن في وصف مشاهد القتل،(فعطارد)هو عبارة عن آلة قتل ،بدأ بقتل جنود مالطا ،ومن يتعاون معهم ثم قتل المصريين عشوائيا حتى يثوروا على المحتل .هذا من جهة ،ومن جهة أخرى هناك قتل الناس لبعضهم البعض.

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب حينما يصف الدم يشعرك بالاستمتاع المصحوب بالهدوء والتريث،و كأنه أصبح شيئًا محببًا للنفس،لاتريد الفكاك منه سريعًا ،فيشبهه مثلا بريشة النعام أو الماء الصاعد من النافورة أو الألعاب النارية ،وهي كلها أمور محببة للنفس .يقول :" خط الدم هذا يذكرني بأشياء كثيرة ،هو مرسوم على الحائط ليس عموديا ،بل يميل بزاوية صغيرة، وينتهي أعلاه بمنحى حاد ليعود طرفه إلى الأرض ،ونقاط صغيرة تتدلى منسابة من طرف المنحنى وقويه يذكرني بالريشة الحرة في ذيل النعامة ،وبخط الماء الصاعد من مركز النافورة ،وبمسار جمرات الألعاب النارية المنطلقة في السماء."[١٨١]

يستمتع عطارد بقتل الناس وتعذيبهم ،فالموت بالنسبة له أصبح مشهدا عاديا وروتينيا حيث يقول :"قتلت الزوجة المصرية لقائد منطقة القاهرة العسكرية ،قتلتها وهي واقفة في حفلة عامة تتلقى التهاني بشهر العسل والزواج ال سعيد،أطلقت النار على رأسها من المبنى المقابل على بعد أقل من عشرين مترا ،ولم ينتبه أحد لما حدث في البداية .فتابعت إطلاق النار وقتلت خمسة أشخاص لا أعرفهم(....)كنت أعذب الرجل وكنت سعيدا ."[١٨٢]

ويصف الكاتب حالة الناس وكيف يصلون للتمادي في القتل بطريقة بشعة وذلك من خلال حكاية مزرعة الخنازير حيث أجبرت الحكومة أصحاب مزارع الخنازير على قتل الخنازير خوفا من انفلونزا الخنازير ،فأجبر أصحاب هذه المزارع العاملين بها على تنفيذ الإعدام لها ،وذلك من خلال ضرب جماجمها بمواسير حديد حتى الموت. رفض العاملون بالمزارع في البداية هذا الأمر ،ولكن بعد ذلك استسلموا لإعدامهم مع شعورهم بالألم ،ثم استمتعوا بما كانوا يفعلونه أي بـ(القتل)،ثم تمادوا بعد ذلك في الأمر فأصبحوا يفرمون العظم واللحم.ومن خلال أصوات الخنازير والعمال سجل أبادير مقطوعته الموسيقية ذائعة الصيت والمحببة للناس!!!!!

يقول الكاتب:"في ذلك اليوم سجل أبادير عدة ساعات من صراخ الخنازير وهي تُقتل .هذه القطعة ممتعة حقا ،وتنتهي بتصاعد مبهر، يقول أبادير إنه سجل أصوات الخنازير تصرخ وهي تُضرب بعنف، ثم التقط أصوات العاملين في المزرعة وهم يبكون وسط صراخها ،كانوا يضربونها ويبكون، ثم أخذ الصراخ يقل والخنازير تستسلم وتكف عن الهرب ،ثم توقف العاملون عن البكاء واستسلموا تماما لنشوة القتل ،ثم شيئا فشيئا أخذوا يصرخون من شدة النشوة ويشتمون الخنازير بألفاظ وكلمات قذرة ،قال أبادير أنه رأى أحدهم وهو يضرب أحد الخنازير بعنف بالغ ،كانت جمجمته قد تحطمت تماما ،ولم يكن هناك أي داع للاستمرار في فرم العظم...."[١٨٣]

ويظهر القتل في بقية الروايات ممزوجا بالعناصر الأخرى ،ففي يوتوبيا مثلا يعتبر صيد الأغيار رياضة بالنسبة لليوتيبيين ،يستمتعون به ،ويحتفظون بأجزاء من أجسادهم كتذكار ،وما أسهل القتل في هذه المدينة سواء بين اليوتيبيين والأغيار ،أو بين الأغيار وبعضهم البعض، ويرتبط بذلك اعتبار الجروح من مظاهر الجمال في هذا العصر.

أما في (ممر الفئران)فيظهر القتل والدموية والوحشية في تشجيع العامة على قتل النورانيين واستمتاعهم بالآهات الصادرة من المعذبين ،بل وتلهفهم للاستماع لأنماط جديدة من القتل.

وحتى في(قواعد جارتين)فهناك طقوس خاصة بالقتل والإعدام تجرى في ساحة جويدا. القتل والدماء أصبحا اعتياديين في المجتمع بل وروتينا يتلهف إليه البعض ويستمتعون به.

في ختام حديثي عن المظاهر الديستوبية في الروايات –محل الدراسة– يتأكد لنا مجموعة من الملاحظات ،حيث يظهر أن هناك مظاهر ديستوبية مشتركة بين هذه الروايات منها :تكريس الطبقية، طمس التاريخ، التحلل الديني والخلقي،الدموية،العبثية واللامبالاة .وهناك مظاهر أخرى نلحظها بقوة في روايات أكثر من غيرها ،وهي لاتختفي تماما في الروايات الأخرى بل مفهوم

وجودها ضمنيا .وكل هذه المظاهر الديستوبية التي ركزنا القول عنها أو التي أشرنا إليها سريعا مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ،ويستدعي بعضها بعضًا، فتكريس الطبقية مثلا يستدعي معه تزييف الوعي ومحاربة الفكر والثقافة والجهل والفقر والمرض والفوضى ،وغيره الكثير من الصفات . وهي مظاهر لا تخلو منها المجتمعات عموما والمجتمعات العربية خصوصا ،ولكن (الديستوبية القاتمة)تحددها (النسبة والتعددية) بمعنى نسبة وجود هذه الصفات وتعدد الصفات الديستوبية في المجتمع الواحد .فإذا اجتمعت كل هذه الصفات والمظاهر السوداوية معا ،فذلك كفيل بأن يحول أي مكان إلى مكان ديستوبي، بينما وجود مظهر أو مظاهر بسيطة بنسب قليلة كفيل بأن يصم ذلك المجتمع بالخلل دون أن يجعله ديستوبيا لا أمل فيه، وذلك ما يجعل لهذا النمط من الروايات أهمية ،فالكاتب يركز على هذه الصفات ويكبرها ليحذر من مغبة التمادي فيها أو التغافل عنها ،لذا هي تمثل استغاثة وصرخة وتوعية للآخر.

ويبدو لنا كذلك من هذه المظاهر الديستوبية مدى الاتفاق بينها وبين الروايات الديستوبية الغربية ،وهو اتفاق–كما سبق وقلنا–من قبيل المشترك الإنساني عموما. ويظهر تأثر بعض الروايات بروايات جورج أورويل على وجه التحديد، وذلك طبيعي نظرا لأن أورويل جمع في روايتيه غالبية المظاهر التي تجعل أي مكان ديستوبيا ،ومن الصعب ألا تجدها في المكان الديستوبي السوداوي.ومن هذه السمات المشتركة :تكريس الطبقية ،الانصياع الأعمى من قبل الشعب للسلطات، طمس التاريخ،التبدل القيمي،الدموية .

(٥)

اللغة في الروايات الديستوبية

لا يمكنني الانتهاء من هذا البحث دون أن أتحدث عن واحدة من أهم العناصر السردية الفنية دون غيرها لتعلقها بما رأيناه من مظاهر ديستوبية ظهرت لنا أحيانا من خلال الاقتباسات السابقة ألا وهي اللغة .وتأتي أهمية حديثي عن اللغة من ملاحظتي لأمرين في الروايات الديستوبية عموما والعربية _محل الدراسة _خصوصا .حيث لاحظت أن اللغة كان لها دوران لافتان في الروايات ،قد عمد إليهما المؤلف في هذا النوع من الروايات ،واتكأ عليهما لكشف المكنون الموضوعي الذي يسعى إلى طرحه :(كوسيلة للتعبير، كشخصية رئيسة في السرد)،وكلا الدورين يعتبران اللغة أداة اتصال وإيصال ،ولكن يختلف الفاعل في كلا الدورين ،فالفاعل في الدور الأول هو الكاتب الذي يشكل هذا العالم الديستوبي من خلال ألفاظ اللغة، وأما الثاني فيكون الفاعل هو بعض شخصيات الرواية التي تستخدم اللغة لإيصال رسالة ما ،أو لتغيير قناعة ينبني عليها فعل .وهذا الدور قد يظهر في الرواية وقد لا يظهر، وحتى ظهوره يختلف في النسبة من رواية لأخرى.

أولا /اللغة من حيث كونها وسيلة للتعبير عن العمل الأدبي نفسه: وهنا نطرح سؤالا رئيسا وهو هل للغة في الروايات الديستوبية خصوصية تختلف عن الأنواع الأخرى أم أن الأمر سيان ؟؟ وهل يصوغ حديث الكاتب عن مدينة ديستوبية خالية من الأخلاق استخدام ألفاظ لا يليق وجودها في عمل أدبي محترم ؟ هل الواقعية تلزم الكاتب استخدام ألفاظ سوقية للتعبير عن الطبقات والشخصيات الناطقة بها؟

وللإجابة عن هذا السؤال نعرض بعض المنطلقات الرئيسة في أسلوب و لغة الرواية منها:

بين باختين كيفية اختلا ف الرواية عن الشعر الغنائي حيث تتعدد الأساليب والأصوات واللغات في الرواية، وأظهر ذلك من خلال ثلاث نقاط رئيسة :

١_فالسرد المباشر وهو خطاب للمؤلف قد يوظف إلى جانب الأسلوب الأدبي أشكالا أسلوبية أخرى غير أدبية بالضرورة كالمواعظ الأخلاقية والفلسفية والخطابية والوصف الإثنوغرافي وأسلوب التقارير .

٢-قد يضم الحوار جميع أشكال الكلام الشفوي السائدة في اللغة الاجتماعية بمعناها الواسع بما فيها اللهجات المختلفة.

٣-كل شخصية في الرواية تميل إلى أن تتميز بأسلوبها الخاص وهو ما يعكس أيضا نمط تفكيرها .

(....)والوحدة الأسلوبية العليا التي يشير إليها هي (قوة موسلبة للأساليب) أو (الأسلبة)stylization وهي تدل على "تنظيم الأساليب ضمن نسق واحد،يخضع بذاته لمفهوم الحوارية وهو عامل منظم لأنه يحدد دلالة كل صوت أو أسلوب داخل مجموع النسق ."[١٨٤]

وإذا كانت الرواية تختلف في أسلوبها عن الشعر فإن الأمر يختلف كذلك داخل الرواية نفسها حسب الأسلوب الذي اتبعه الكاتب من حيث (الديالوجية والمنولوجية)فالرواية الديالوجية "تلتزم بتعددية متكافئة للأساليب وتبتعد قدر الإمكان عن كل تمركز على الذات أو على إيديولوجية مفردة ،وهي لذلك أكثر أنواع الرواية ابتعادا عن الشعر ولوازمه .... ولذلك فالرواية الديالوجية هي نوع من الأسلبة للأساليب بمعنى أن الروائي الديالوجي لا يصنع أسلوبه كما يفعل الشاعر أو حتى المتكلم العادي بل هو يبحث عن أساليب جاهزة في الواقع الاجتماعي والثقافي المحيط به ،ومصدره في هذه الحالة ليس هو القاموس كما هو معتاد بالنسبة لتأليف اللغة التواصلية أو الشعرية ،بل هو مدونة الأساليب الاجتماعية أو السوسيو لهجات (sociolectes) "[١٨٥] ،وليس معنى ذلك تخلي الروائي عن لغته الذاتية وإنما تظهر في موضعين رئيسين أولهما حينما يعبر الكاتب عن آرائه الشخصية ولو خلف ستار شخصية تتقمص مواقفه الايدلوجية ،وثانيهما لحظة توظيف اللغة كأداة للربط بين الأساليب المختلفة التي تتصارع في النص.

بينما في الرواية المونولوجية يغلب فيها أسلوب ما "ويهيمن على الأساليب الأخرى الموجودة في الرواية لذا فإن غياب تلك المساواة يحدث فجوة كبيرة في نسيج الإقناع الروائي الذي تتميز به الرواية الديالوجية، وهو ما يتم تعويضه في الرواية المونولوجية بالتمويه الشعري وهذا يعني ميل الرواية المونولوجية إلى تكثيف حضور الطاقة الشعرية "[١٨٦] مع الوضع في الاعتبار أن هذه الروايات قد تكتسب قيمتها الفنية من خلال الوصف الدقيق للشخصيات والفضاء الذي تجري فيه الأحداث دون أن يتخلى الروائي بالضرورة عن توجيه القارئ وفرض رؤيته الخاصة عليه.

وبذلك فإن التنويع اللغوي شيئا رئيسا في العمل الروائي ،ووجود مستويات للغة مختلفة ومتعددة طبيعي فيها ،ويكون التنوع في أقصاه في الروايات الحوارية ،ويقصى أو يكاد يختفي هذا التنوع في الروايات المنولوجية ،وبينهما يكون الأمر وسطا خاصة في الروايات المونولوجية ذات المظهر الحواري(الروايات التمويهية).

وعلى ذلك إذا كنت روائيا فأنا مخير بين أساليب مختلفة وفق أهداف العمل الأدبي نفسه، ووفق أيديولوجيتي الخاصة.وطبيعي أن يظهر نوع الرواية في العمل الأدبي ويفرض قوانينه علينا ،وكذلك تفرض شخصياته علينا أساليب معينة وخاصة إذا كانت الرواية ديالوجية. وهنا يكون كاتب الرواية الديستوبية أمام اختبار حقيقي وخيار صعب، فالعالم الديستوبي الذي يصوره لنا الكاتب وخاصة إذا ركز على الديستوبيا المجتمعية وعلى أخلاق الأشخاص ممتلئ بالقباحات وبدنو الأخلاق ،ولن نتوقع أن يقابل دنو الأخلاق بعلو ورقي في اللغة ،فكيف لأخلاق وضيعة ومثل فاسدة وأفكار عفنة أن يعبر عنها أصحابها بلغة راقية ومهذبة ،وإلا لكنا وجدنا الطبقات الدنيا من المجتمع أرقى الناس لغة، فالعلاقة طردية بين جمال النفس والفكر والخلق وجمال ورقي اللغة المستخدمة . إذن من المنطقي أن يستخدم كاتب الرواية الديستوبية أقبح الألفاظ الموجودة في المجتمع المتدني بل والألفاظ المتوقع انتشارها أيضا في المستقبل في

الروايات الديستوبية ،وبذلك تصبح الروايات الديستوبية الديالوجية مستنقعا للألفاظ القبيحة والسوقية ،وتصبح الروايات المونولجية ذات المظهر الحواري مرقعة مهلهلة بين لغة سوقية ولغة عالية أدبية، فيحدث خللا واضحا في مستويات اللغة المستخدمة . ويكمن المأزق بشكل أدق في الاختيار بين إيهام القارئ بواقعية الأحداث وبين الوظيفة اللغوية الجمالية للأدب .فإذا اختار الكاتب الواقعية فإنه حينها يضيع اللغة ويضيع متحدثيها ،وإذا اختار الوظيفة الجمالية للأدب فإنه قد ينحي بعض الأساليب من كتابته، ولربما كان الحل الأمثل له إذا أراد الخروج من هذا المأزق هو الشكل المونولوجي للرواية .وقد يبدع الأديب حتى في الأساليب الأخرى دون استخدام هذه القباحات اللغوية السوقية التي تؤذي أسماع وعيون القراء وتؤذي مشاعرهم وتجعلهم يتقززون من قراءة ذلك العمل الأدبي ،وليجد الكاتب وسيلة أخرى ليبين ديستوبية هذا العالم فيتكأ أكثر على الأفكار والأحداث أو حتى الوصف دون استخدام تلك الألفاظ ،"فالسحر اللغوي إذا غاب عن العمل الروائي غاب الفن ،وغاب الأدب معا."[١٨٧] فاللغة هي أساس الجمال في العمل الأدبي .

وفي الروايات التي بين أيدينا سنلحظ أن معظمها تدرجت ما بين الروايات المونولوجية والروايات المونولوجية ذات المظهر الحواري، فنجد مثلا أحمد خالد توفيق في روايته يوتوبيا يعطي الحق لشخصيتين من شخصيات الرواية لسرد الأحداث (شخصية من الأغيار وشخصية من اليوتيبيين)ورغم أن الشخصيات من العالم الديستوبي إلا أن لغتهم متقاربة جدا لا تشعر فيها بأي فرق ،رغم أن الكاتب يحدد قاموسا لغويا لكل منهم تدور حياتهم حوله،أو يمثل ركيزة ترتكز عليه حياتهم .فحدد لليوتيبين قاموسا لغويا يتضمن (الإثارة–الإثم..التعدي..خرق القواعد..التحدي...كسر
التابو...المشاغبة..المخالفة..الهدم...التوتر..الأدرينالين...التغيير...التمرد....ا
لانحلال..الصدمة...التميز. الدهشة...هذا هو اسم اللعبة."[١٨٨]

هذا القاموس يلعب دورا رئيسا في الرواية من جهتين :الأولى تتعلق بدوران أحداث السرد الخاصة باليوتيبيين حول هذه الكلمات وكذلك دوران سمات الشخصيات وأهداف هذه الفئة. والجهة الثانية أن هذه الألفاظ يرددها اليوتيبيون كثيرا فبالتالي تتحول إلى قناعات وإلى أفعال. وهذا دور هام للغة لا ينبغي اهماله واسقاطه.

أما القاموس اللغوي للأغيار،فكما سبق وأشرنا في بداية البحث فهو يتعلق بالعنف والقهر .وتؤدي اللغة هنا عند الأغيار نفس الدور الذي أدته عند اليوتيبيين.

وكما أن هناك كلمات تدور حولها الحياة حاضرة وبقوة ،فهناك كلمات أخرى انتهت من حياة كل فريق،فالخطر والموت كلمات انتهت في يوتوبيا ،وكذلك الدهشة والاشمئزاز والتوجس انتهت عند الأغيار،وهي مشاعر لاحظها جابر على راسم اليوتيوبي وجرمينال عندما رآهما في منطقتهم يقول مثلا:"لا أعرف كل واحد في المنطقة،لكني بالتأكيد أعرف البؤس والشقاء عندما أراهما..أعرف الجوع ..أعرف الوهن ..قابلتهم كثيرا جدا حتى صرت أعرفهم من بعيد بسهولة تامة ومهما تنكروا..

هنا رأيت بؤسا وشقاء وجوعا غير أصليين..رأيت خوفا وهذا غير معتاد ..في عالمنا لاترى الخوف كثيرا إنما هو نوع من استسلام للمصير وقنوط.

وقفت من بعيد أراقبهما..

رأيت الدهشة ..رأيت الاشمئزاز..رأيت التقزز..رأيت التوجس

هذه عواطف دخيلة على عالمي ..لا أحد يشمئز عندنا ..لا أحد يندهش..أي طفل في التاسعة رأى كل شيء وجاع كثيرا جدا،وغالبا قد اغتصب ثلاث أو أربع مرات،لهذا ترى على وجهه علامات من رأى كل شيء كأنه عاهرة عجوز مجربة."[١٨٩]

وإذا لاحظنا هذا المقطع السردي سيبدو لنا كأن هذه الألفاظ بما تحملها من دلالات ومشاعر وانفعالات تحولت أمامنا إلى شخصيات نراها ونعرف كنهها.

حتى الأغنيات– وهي وسيلة لغوية هامة يتكأ عليها أحمد خالد توفيق في روايتيه – فإن لكل منهما أغنياته الخاصة،فاليوتيبيون يستمعون لأغنيات الأورجازم،بينما الأغيار فقصائد عبدالرحمن الأبنودي من نصيبهم.ولكل منهما دلالته الخاصة .فأغاني الأورجازم مثلا تحمل دلالات جنسية مباشرة،أو لنقل أنه يستعير منها رمزية النشوة،وهي الهدف الأساسي لليوتيبيين (البحث عن النشوة بأعلى درجاتها وبأي طريقة ممكنة)فهي مقصدهم وغايتهم ،وهي الشيء المفقود أيضا في حياتهم.

وكلمات الأغنيات الخاصة بالأورجازم تقول مثلا:

**عندما تنفتح المقابر وتخرج الشياطين

عندما تتناثر جماجم الأطفال في السهول

عندما تتلوث أجنحة الملائكة بالدم وتمارس سندريلا البغاء

عندما يعلن بعلزبول أن الحين قد حان

عندها فقط يمكنني أن أغمض عيني مستريحا

وأموت

وإذا جمعنا هذه المقطوعة جنبا إلى جنب مع الكلمات الأبرز في هذا الفصل سنرى مدى ارتباطهم ببعض ،ودورهم السردي في تدعيم هذه الدلالات في الرواية. ومن هذه الكلمات(الموت بمشتقات الكلمة–الخطر–الإثارة–تدفق الأدرينالين–النشوة)

ومع قرار (راسم اليوتيوبي)الذهاب لصيد الأغيار تكون هذه المقطوعة :

تنسحق الشمس إذ تطؤها أقدام الكوكب الأحمر

تصرخ الملائكة خوفا..

أنت فريستي...أنت لي..

فقط عندما تصير جزءا من خلاياى بعد الافتراس

عندها تعرف معنى الأبدية...

وتستمر هذه المقطوعات بنفس الطريقة فتكون جزءا رئيسا من المكون الثقافي والانفعالي لليوتيبيين وتحوي أهدافهم ودوافعهم في الحياة وبها يتغنون ثم يتحول الغناء إلى قناعة وعقيدة وينتج عنه الفعل.

أما قصائد عبدالرحمن الأبنودي أو بالأحرى قصيدته التي جاءت مقسمة على فصول الرواية الخاصة بالأغيار وهي (احنا شعب وأنتم شعب) فدلالتها تتمحور حول الشعور بالفرقة والانقسام والطبقية والدونية عن الطبقة الأخرى العليا المتحكمة في كل شيء،والمستمتعة بكل شيء .واستنكار ذلك كله طبعا.

احنا شعبين..شعبين...شعبين
شوف الأول فين والتاني فين؟
وآدي الخط مابين الاثنين
انتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
في ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر
بطن وصدر
والريحة سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
واحنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت في الحرب.

كلاهما ينتهي بالموت (الأورجازم– قصيدة الأبنودي) ولكن هيهات بين موت وموت ، فالأولى الرغبة في الموت المسرحي الأنيق بحثا عن أقصى درجات اللذة والشهوة والمتعة ،والثانية موت في الحرب أو هنا في كفاح الحياة .

أما في رواية(ممر الفئران) فاستعان الكاتب بوسيلتين لغويتين لتشكيل هذا العالم الديستوبي ،فهناك إحلال وإبدال لكلمات معينة ،حيث لم يعد هناك معنى

لبعض الكلمات في عالم الظلام مثل (صباح الخير–نهارك سعيد–قبيح– أبيض –لا معنى للجمال البصري عموما) ،يبدو ذلك لنا في المقاطع السردية التالية:

"في عالم كهذا لا يكون للجمال معنى. لا أحد يطلب غرفة تطل على النيل أو بحيرة.لا معنى للجمال البصري.الراحة والرائحة هما الأهم."[١٩٠]

ويقول أيضا:"هناك انتهت من اللغة كلمات مثل (صباح الخير)و(نهارك سعيد)في البدء كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية ،وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه السخرية ،وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم .هناك أشياء لم يعد لها معنى .ما معنى أن اللبن أبيض؟وما معنى أن البحر أزرق ؟ما معنى أن فلانا أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ؟هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون."[١٩١]

عندما يغيب البصر فبالطبع سيغيب معنى كل ما هو مرئي وبالتالي لفظه، خاصة إذا كان العالم كله قائما على الظلام، لذا يظهر الاختلاف بين جيل عاش في النور وجيل ولد في الظلام من خلال حوار رامي وابنه:

"يحكي رامي لابنه بعد العشاء الذي تكون من لحم ولحم ولحم:

–كنا نصحو من النوم لنرى الشمس.. جسما شديد الوهج عملاقا حارا يبرز من الشرق.

يسأله الفتى:

–ما معنى "وهاج"؟

–أي أنه ...أي إنه يبعث نورا قويا.

فيبتسم الفتى ويخجل من أن يسأل عن معنى النور ..فيقول في أدب:

–هه..هه

يواصل الأب الكلام:

–عندها كان القمر يتلاشى ومعه النجوم. كأنه يتوارى خجلا من كل هذا البهاء.

فيسأله الفتى في الظلام:

-"القمر"؟ هل هي تلك الشموس الصغيرة التي...

-لا..أنت تخلط بينه وبين النجوم.

-والنجوم؟هل كانت جميلة بحق؟

-لم يكن ثمة شيء أجمل منها .في القرية كنت أرقد في الحقل على ظهري أصغي لصوت الحشرات الليلية ونقيق الضفادع في الجدول ..وأنظر للسماء فأتخيلها فلاحة حسناء عملاقة نثرت الترتر على ثوبها ..هذا تشبيه روائي مبتذل لكنه معبر جدا.

-ما معنى حسناء؟"[١٩٢]

ويستمر الحوار بين رامي وابنه مطولا. يحكي الأب عن مفاهيم ومعاني كانت في حياته يصفها بألفاظها الموضوعة لها في اللغة ،ولكن اللغة استعمال ،لذا لايفهم الابن هذه الكلمات ولا يستطيع تخيلها ،ولذلك ينبئ هذا الأمر بتغير اللغة واندثار مثل هذه الكلمات . وفي المقابل هناك كلمات استحدثت نتيجة هذه المتغيرات الحادثة في العالم وذلك مثل(اكتئاب الظلام).

أما الوسيلة الثانية التي استعان بها الكاتب في تشكيل هذا العالم الديستوبي هي الأغنيات مثلما فعل في رواية يوتوبيا،فنجده يبدأ الرواية بأغنية أسماها (أغنية الوحدة)قائلا:

"الليل والصمت...

الليل والصمت وأغنية الانهزام...

الليل والصمت وأغنية الانهزام..

الليل والصمت وأغنية الانهزام وصحوة الجرح الذي لم يلتئم بعد..

الليل والصمت وأغنية الانهزام وصحوة الجرح الذي لم يلتئم بعد..

والشهوات التي لم ترتو قط.

أنت رخو..ضعيف..أنت عاجز عن مواجهة أي شيء."[١٩٣]

يذكر الكاتب هذه المقطوعة كاملة في بداية الفصل ،ثم يذكرها مقسمة خلال الفصل الأول نفسه كالآتي:

*أنت رخو ..ضعيف..عاجز عن مواجهة أي شيء(مرتان)[١٩٤]

*الليل والصمت..الليل والصمت وأغنية الانهزام(مرتان)[١٩٥]

والأغنية تمثل حالة الاغتراب الذي يعيشه بطل الرواية ، وحيرته الوجودية وأزماته الشخصية .وتغيب عنا هذه الأغنية خلال فصول الرواية ،ثم يستدعيها الكاتب ساخرا من حيرته الوجودية قرب نهاية الرواية فيقول:

"الليل والصمت ..

الليل والصمت وأغنية الانهزام..

الليل والصمت وأغنية الانهزام وصحوة الجرح الذي لم يلتئم بعد..

كان مترفا يسأل أسئلة وجودية..الآن لا مجال لهذا الهراء؟"[١٩٦]

وبينما تغيب أغنية الاغتراب عن الرواية تحضر أغاني نجوان(إحدى شخصيات الرواية الثورية) والتي تبدأها بالبحث عن الغد الذي تؤمن به والذي قال عنه كل من(العرافين–الأغنيات–الأنبياء–الأحلام)بمعنى كل مهتم بالمستقبل ومتحدث عن النبوءات، ولكن الواقع كان خلافا لهذه النبوءات ،الواقع جاء ليحطم هذه النبؤات، ورغم ذلك فإنها تصر على أن لا أحد سيقهر أحلامها حتى لو قهروا كل من الأنبياء والأغنيات والعرافين.

ومنها : "قال العراف:هناك غد..

قالت الأغنيات:هناك غد..

قال الأنبياء:هناك غد...

قالت أحلامي:هناك غد..

وعندما جاء المغول يحرقون القرى ،ويكومون جثث الأطفال.

قالوا إنه لن يكون غد

حقا لا أصدق.

لو أرادوا ألا يكون غد فعليهم أن يحاربوا كل العرافين..

كل الأنبياء..كل الأغنيات ..ربما استطاعوا قهرهم

لكن أحلامي ستهزمهم ..ويكون غد..."[١٩٧]

وتؤكد في أغنياتها على هذا التضاد القاهر بين الحلم والواقع، بين الحاضر والغد فتقول:

"في نافذة روحي ينتظر ظمأ يتلظى للنولا
شوق يتأجج للحكمة..
أتشمم ضوءا خجولا يتسرب من ثقب في الحائط.
ببقاياه ألحق
أتمسك بآخر خيط منه، لكنه يشهق ويحتضر بين أناملي.
يتسرب من بين الأصابع..
قد مات النور وفارقني..
لذا –ترون –أقف وحدي ..أنعيه وأرتجف وأشعر باليتم.
ابنة الضوء أنا.عاشقة النور أنا .جارية في بلاط الشمس أنا.
(...)
عندما كان النور صديقي ..لما كان بوسعي
أن أتمرد..أن أحلم..أن أعرف أكثر
لكن الغد المذعور يقابلني خلف الأشجار المتشابكة
وبالسر يهمس في أذني..
وينتزع مني الوعود ألا أخبر أحدا ..حتى وأنا أموت
أيها الغد:أنا بوعدي بررت..
جاء دورك."[١٩٨]

وتنتهي أغاني نجوان فريد النثرية مع إعدامها وفيها تقول:

"عندما أغيب وراء المغيب
فلاتقولوا إنني خضعت.
لا تقولوا إني تهللت للظالمين أو طلبت رأفة غير مستحقة
إنكم إذا تقولون هذا
تقتلونني مرتين

تقتلون جسدي ثم تحرقون ذكراي."[١٩٩]

وبذلك تظل الأغنية حاضرة في حالات الإنسان المختلفة ومرتبطة أكثر بألمه وشجنه وحيرته وثورته. تظل ممثلا للثورات وداعية لها ومحفزة لها .وتظل أيقونة هامة في الرواية لها رمزيتها وكونها الدلالي الرحب.

أما رواية (عطارد) فالأمر فيها اختلف كثيرا من حيث اللغة المستخدمة ، فالكاتب أولا أعطى دور السرد للشخصية الرئيسة وهو أحمد عطارد فجاءت أحداث الرواية كلها –تقريبا–على لسانه ،ومحمد ربيع استخدم اللغة كوسيلة رئيسة جنبا إلى جنب مع بشاعة الأحداث لإيصال القارئ إلى حالة كبيرة من التقزز والنفور ،وذلك من جهتين:

١–من حيث الألفاظ المستخدمة:

رغم أن محمد ربيع يستخدم لغة أدبية مميزة في معظم الرواية وكلها فصحى ،خلت تقريبا _إلا في مواضع بسيطة _من الألفاظ العامية ،إلا أنه استخدم في مواضع متعددة ألفاظا سوقية ومتدنية وغير مقبولة مجتمعيا ،حتى أنني أترفع عن ذكرها في هذا البحث[٢٠٠]،وربما كان مبرره ماسبق وذكرناه من إيهام بواقعية الأحداث ،واختيار القاموس اللغوي للشخصيات بشكل واقعي وهذه الألفاظ تظهر غالبيتها في الخط الزمني المستقبلي(٢٠٢٥)،ولكن هذه الألفاظ –من وجهة نظري–قللت من أدبية الرواية وأوقعتها في وحل كان الأجدر به الابتعاد عنه وخاصة أن هناك عناصرًا أخرى في الرواية تخدم نوع الرواية الديستوبي.

٢–من حيث المشاهد الوصفية: اتكأ محمد ربيع على الوصف في روايته أكثر من الأحداث نفسها، فالرواية كلها قائمة على مشهدين متكررين بأشكال وصور مختلفة(القتل،الجنس أوالاغتصاب) وهذه المشاهد الوصفية يحتل كل مشهد فيها فقرات كثيرة قد تصل لصفحات ،ومنها مشاهد مقززة إلى أبعد الحدود [٢٠١]،وفيها مشاهد غير مبرر وجودها [٢٠٢].

نورد منها المشهد الذي تنتهي به الرواية وهو مشهد إعدام فريدة على سبيل المثال –رغم طوله–

" جردها الجلاد من ملابسها الحمراء تماما ،لم تكن ترتدي أي شيء سواها،ثم أخذ يشير إلى ثدييها ،وينظر إلى الناس وهو يرفع كفه إلى ذقنه متعجبا ،أشار لهم بسبابته ،كان ينبههم إلى حلمتها الغائبة .ثم أخذ مبضعا من الطاولة إلى جانبه ،وقطع حلمتها الثانية ورمى بها إلى الناس.هجم الناس من خلفي في عنف ،وجوههم مشدوهة جامدة .كانوا يريدون التقاط الحلمة بأي ثمن .لكنها كانت قد ضاعت بين الأقدام.غطتنا رائحة العرق زنخة قوية.أعادها الجلاد إلى منتصف المنصة وثديها ينزف ،ألصقها بعمود من الخشب غليظ برز من منتصف المنصة ،وقيد رقبتها بقيد حديد مثبت به.وضع الطبيب إبرة في عنقها،ووصلها بكيس المحلول الشفاف ،ثم أخذ يوصل أجهزة القياس بصدرها .ثم ربط ذراعيها فوق المرفقين بأشرطة قماش بيضاء .كان الجلاد رحيما جدا وقرر أن يقطع كفيها بالكامل ،لا أن يقطع أصابعها واحدا تلو الآخر ،قطعهما سريعا دون دم كثير ،ثم رمى الكفين إلى الناس .ازداد هيجان الناس وتزاحموا على الكفين. وبالمبضع نفسه قطع الجلاد الجلد واللحم عند مرفقها الأيمن ،ثم أخذ يقطع المفصل بالمنشار .ثم رمى الساعد إلى الناس .ثم قطع الآخر ورماه .وصعد آخر من قلب المنصة بناء على طلب الجلاد ،وقف خلف فريدة وأمسك بثدييها وألصقها بالعمود الخشب، وعمل الجلاد بسرعة فقطع ساقيها عند الركبتين .أصبت إصابات عديدة ،كان الناس يتشاجرون بكل عنف على الأعضاء الملقاة إليهم ،ترك الجلاد الآخر فريدة لتتخبط معلقة من عنقها تحاول الإفلات من المشنقة الحديد .وقف كثيرون حولي ثابتين يرفعون رؤوسهم نحو فريدة المعلقة ،كانوا قد أنزلوا ما يرتدونه وأخذوا يستمنون .عدل الجلادان وضع فريدة،أسندوا ما تبقى منها على كرسي مرتفع ،ثم قطع الجلاد دائرة الجلد حول ثدييها ،وأخذ يعمق القطع حتى استأصلهما تماما ،ورماهما إلى الناس،اختلطت رائحة المني بالغة القوة برائحة العرق،ولم أعد أشعر بالألم أو بالثقل على جسدي،كان قد تحرر أخيرا.وقف الكثيرون حولي عرايا تماما ،والمني يقطر من ذكورهم ،وراح واحد يضرب رؤوس من حوله بماسورة قصيرة من حديد رنت مع

كل ضربة ،لكن أحدا لم يلتفت له ولا لضرباته،حتى من كان يضربهم لم يتحركوا..."[٢٠٣]

وهذا المشهد يلخص ما قلناه من اعتماد الرواية على عنصريين رئيسين هما(القتل والجنس)والشذوذ في كل منهما إلى أبعد الحدود ،ويظهر لنا منه أيضا –وهو الممتد لصفحات بعد الفقرة التي أوردناها –تأني الكاتب في الوصف ،فهو لا يصف مشهد القتل والإعدام هذا على عجالة بل بتأني واستطراد كبير ،وهذا ديدنه في الرواية ،حتى لكأنك تشعر أنك تعيش في عالم من الزومبي لا يسيطر عليهم سوى الرغبة في القتل وتخلو أجسادهم من القلوب والعقول .وهذا ما سبق ووصفه هو نفسه–كما أشرنا آنفا– في بداية الرواية بالأموات الأحياء.

وخلاصة الأمر كنا نود لو قلل الكاتب من هذه المشاهد واعتمد على عناصر ديستوبية أخرى جنبا إلى جنب مع العناصر التي اتكأ عليها ،ووددنا كذلك لو استعاض عن المعجم اللغوي السوقي وكذلك الجنسي بمعجم آخر أكثر رقيا ،حتى يحفظ للأدب وظيفته الجمالية وقيمته الإبداعية ،وحتى يرغب القارئ في قراءة هذا العمل رغم سوداويته مرارا وتكرارا لما له من قيمة فكرية واستشرافية ولغوية أيضا،وذلك مثل كثير من الروايات الديستوبية العالمية .

ثانيا/اللغة كشخصية رئيسة في الروايات الديستوبية :

تعتبر اللغة شخصية مجازية [٢٠٤]رئيسة في الروايات الديستوبية لها وظيفة في العمل السردي وذلك من منطلق أن اللغة تمثل الهوية ،وإذا أرادت الأنظمة الشمولية أو المستبدة أو الاستعمارية القضاء على شعب ما والسيطرة عليه، فإنها تضع اللغة في اعتبارها وذلك من أكثر من جهة ،فمن جهة ازدراء لغتهم ، ومن جهة أخرى تغيير ألفاظ اللغة والقضاء على ألفاظ بعينها كالألفاظ الدالة على الحرية والاستقلال والديمقراطية. ووضع مصطلحات أخرى بديلا عنها وتمييع الكثير من الألفاظ والمصطلحات وتمويهها. واستخدام العديد من المغالطات المنطقية في الخطابات الموجهة للشعب. وهذا الأمر كان متكررا

عبر التاريخ ونقصد به تدخل الساسة في اللغة ، ورسم الخطة اللغوية للمجتمع ،وذلك نجده مجال دراسة السياسة اللغوية كجزء من اللسانيات الاجتماعية[٢٠٥]
وأول ظهور هذا الأمر في الروايات الديستوبية كان عند جورج أورويل من خلال ثلاث كتابات رئيسة وهم –وفقا للترتيب الزمني–
١–رواية مزرعة الحيوان (نشرت ١٩٤٤)م
٢–مقالة (السياسة واللغة الإنكليزية) نشرت عام ١٩٤٦م
٣–رواية ١٩٨٤ (نشرت ١٩٤٩م)
حيث اهتم جورج أورويل بالعلاقة بين اللغة والسياسة من جهة واللغة والفكر من جهة أخرى ، واهتم كذلك بطرق استخدام السلطات للغة وكيفية انتاجها .وظهر هذا الأمر في كتاباته النظرية وكذلك في رواياته، فإذا عرضنا أولا لأهم الأفكار التي وردت في مقاله (السياسة واللغة الإنكليزية)وهو من المقالات الهامة جدا ،وهو إحدى أشهر المقالات في تاريخ الصحافة الإنجليزية ، ورغم مرور"أكثر من ستين عاما على كتابة مقال السياسة واللغة الإنجليزية فإنه لا يزال يدرس في المدارس الثانوية الأمريكية .فبحسب جوستافسون في كتابه الكلمات الممثلة فإنه عادة ما يطلب من طلبة المدارس الثانوية والجامعات قراءة مقال أورويل ،لكونه يعرف الطلاب بسياسات اللغة ،وينمي وعيهم بالكيفية التي يقوم بها السياسيون بتزييف الواقع أو التحكم في إدراكنا له.(...) وقد بلغ تأثير كتابات أورويل حول لغة السياسة حد اشتقاق مصطلح أصبح ذائع الصيت هو مصطلح(أورويل) Orwellin، الذي يطلق على اللغة أو الكلام أو التعبير الذي يمارس التضليل والتزييف ،كما يطلق على العالم الذي تسوده ديكتاتورية قهرية مضللة."[٢٠٦]

في مقاله يتحدث عن الغموض بشكل أساسي الذي يلحق باللغة سواء في الكتابة أو في الخطابات خاصة الخطابات السياسية ،يتحدث عن النفاق في الكتابة ويتحدث عن الكنايات المخففة رغبة في تمويه الكلام وتضليل المستمع، يتحدث عن العبارات الطويلة المسكوكة والمنمقة والتي لا توحي بأي شيء.

يتحدث عن استخدام السياسيين للغة في التضليل المتعمد وفي قلب الحقائق ،وقد ارتأينا اقتباس بعض الفقرات الهامة من مقاله كما هي بدون تدخل أو تعقيب فهي لا تحتاج إلى أي تعقيب ،ومن ذلك :(كلمات بلا معنى)

"في أشكال محددة من الكتابة خصوصا في النقد والنقد الأدبي ،من المعتاد أن يصادف المرء مقاطع طويلة خالية من أي معنى.كلمات مثل :رومانسي ،لدن،قيم ،إنساني،ميت،عاطفي ،طبيعي ،حيوي ،كما تستخدم في النقد الأدبي ،لا معنى لها تماما،ليس فقط لأنها لا تشير إلى أي شيء يمكن العثور عليه ،بل لأنه لا يكاد يتوقع من القارئ أن يجد هذا الشيء .عندما يكتب أحد النقاد(الميزة المدهشة في عمل السيد س كونه نابض بالحياة)بينما يكتب آخر(أول ما يلفت النظر في عمل السيد س ويميزه كونه ميتا) .يتقبل القارئ هذا ببساطة على أنه اختلاف في الرأي .إن استخدمت كلمات مثل أبيض وأسود ،بدلا من مصطلحات حي وميت ،سيرى القارئ فورا أن هذا استخدام غير مقبول للغة.بشكل مماثل ،يساء استخدام كثير من الكلمات السياسية .لا معنى اليوم لكلمة الفاشية باستثناء أنها تشير إلى (شيء ما غير مرغوب) .كل كلمة من الكلمات التالية:الديمقراطية ،الاشتراكية،الحرية،وطني ،واقعي،العدالة ،لها معان متعددة ،ولا يمكن لهذه المعاني أن تنسجم مع بعضها.وفي حالة كلمة الديمقراطية ،ليست المشكلة في عدم وجود تعريف متفق عليه ،بل إن محاولة وضع مثل هذا التعريف مرفوضة من قبل كل الأطراف .يكاد أن يكون الشعور بأننا عندما نصف بلدا ما بأنه ديمقراطي ،فنحن نطري عليه ،ينتج عن هذا أن المدافعين عن أي نظام يصفونه بأنه ديمقراطي."[٢٠٧]

** هناك كلمات كثيرة تستخدم بمعان متعددة بغرض الخداع منها(الطبقة،التوتاليتارية،العلم،التقدم،رجعي،البرجوازية،مساواة) ،وقريب من هذا الرأي رأي غوستاف لوبون حيث يقول "الكلمات التي يصعب تحديد معناها بشكل دقيق هي التي تمتلك أحيانا أكبر قدرة على التأثير والفعل.نضرب على

ذلك مثلا الكلمات التالية:ديمقراطية،اشتراكية ،مساواة،حرية ،إلخ فمعانيها من الغموض بحيث إننا نحتاج إلى مجلدات ضخمة لشرحها ."[٢٠٨]

تحدث الكاتب أيضا عن الأسلوب المدعي حيث يتم استخدام كلمات بعينها مثل(قطعي،فعال،أساسي،رئيس، يعزز.... وذلك لتزيين العبارات البسيطة ولمنح مسحة علمية حيادية للأحكام المسبقة.)

ويهاجم الكاتب اللغة السياسية بشكل حاد في قوله:"يصح على العموم القول في أيامنا هذه إن الكتابة السياسية كتابة سيئة.وعندما لا تكون سيئة عادة ما نجد أن الكاتب بطريقة ما متمرد ،يعبر عن نفسه وليس عن الخط الحزبي .يبدو أن الالتزام بالتعاليم الرسمية مهما كان شكلها ،يتطلب أسلوبا ميتا يعتمد على التقليد .بالطبع تختلف اللهجات السياسية التي نجدها في المنشورات ،ومقالات الرأي ،والبيانات والخطابات الحكومية وملخصات وكلاء الوزارات ،بين حزب وآخر ،ولكنها جميعا تشترك في أنك لن تجد فيها أية محاولة حيوية طازجة في الكلام .عندما يشاهد المرء كويتبا متعبا على المنصة يردد التعابير المألوفة (وحشي– الجرائم الفظيعة –الجزمة العسكرية–الطغيان الدموي–شعوب العالم الحرة–نقف كتفا لكتف) يراوده الشعور الغريب بأن هذا ليس كائنا حيا بل دمية.هذا الشعور يتضاعف فجأة عندما يقع الضوء على نظارات هذا الشخص حيث تظهر كأقراص فارغة لا عيون خلفها.وهذا ليس متوهما بشكل كامل .الشخص الذي يستخدم هكذا تعابير قد اجتاز مسافة كبيرة في تحويل نفسه إلى آلة .الضجيج المسموع قادم من حنجرته ،ولكن دماغه غير مشارك في العملية ،كما سيشارك فيها لو كان هو نفسه من يختار كلماته .إذا كان معتادا على إلقاء الخطاب نفسه مرات ومرات سيكون تقريبا غير واع بما يقول،كما هو حال من يردد الصلوات في الكنيسة .وهذه الحالة المخفضة من الوعي إن لم تكن ضرورية للامتثال السياسي فهي على كل حال مؤاتية له .في زمننا هذا تشكل الكتابة والخطاب السياسي محاولة للدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه .نستطيع بالطبع الدفاع عن أشياء مثل استمرار الحكم البريطاني في الهند ،حملات التطهير

والنفي في روسيا،إلقاء القنابل الذرية على اليابان،ولكن فقط من خلال حجج وحشية إلى درجة كبيرة بالنسبة لمعظم الناس ،ولا تتفق مع الأهداف المعلنة للأحزاب السياسية .يجب أن تتكون هذه اللغة السياسية بشكل كبير من الكنايات المخففة والمصادرة على المطلوب والغموض الغائم البحت .تقصف القرى الآمنة من السماء ،ويجبر السكان على الهروب إلى الأرياف،تقتل الماشية بالأسلحة الآلية،تشتعل النيران في الأكواخ بالقنابل الحارقة :يسمى هذا إعادة السلام.ينتزع ملايين الفلاحين من مزارعهم ويشردون في الطرقات ،لا يملكون إلا مايستطيعون حمله ،يسمى هذا إعادة توطين السكان أو تصحيح الحدود.يسجن الناس لسنوات دون محاكمة،ويطلق النار عليهم من الخلف أو في العنق أو يرسلون إلى معسكرات من خشب في القطب الشمالي :يسمى هذا التخلص من العناصر غير الموثوقة .هناك حاجة إلى استخدام هذه المصطلحات إن أردنا ألا نستحضر صورة ذهنية حية لما يحصل ....كمية كبيرة من الكلمات اللاتينية تسقط على النص كثلج خفيف لتشوش الفكرة وتغطي على التفاصيل.العدو الأكبر للكتابة الواضحة هو النفاق."[٢٠٩]

ويأتي في نهاية المقال عبارة غاية في الأهمية يلخص بها حقيقة اللغة السياسية فيقول:

"صممت اللغة السياسية.....لجعل الأكاذيب تبدو حقيقة والجريمة محترمة ولإعطاء مظهر من الصلابة للريح المجردة."[٢١٠]

وتمثل هذه الجملة البؤرة التي ارتكز عليها الكاتب في روايتيه ،ولكن بالشكل التطبيقي .بمعنى كيف تتمظهر اللغة السياسية في الرواية ،وكيف يستخدم الساسة اللغة للتحكم بالشعوب ولإقناعهم .ولترسيخ حكمهم وأيديولوجياتهم .

وقد استعان الكاتب بما سبق وذكره في مقالته في هاتين الروايتين ،ففي مزرعة الحيوان اتكأ على اللغة بشكل كبير في السيطرة على الحيوانات وإقناعهم بالأفكار والمبادئ التي تراها الخنازير بل وبقلب كل الحقائق وتشويهها –كما سبق وذكرنا في بداية البحث_ وكان من ضمن هذه الوسائل (الإحلال

والإبدال)حيث لغى كلمات معينة وأبدلها بكلمات أخرى أكثر غموضا يمكن للخنازير تقبلها ،إضافة إلى استعانته بالكلمات والألفاظ الغامضة والمبهمة التي تحمل معاني مختلفة وكذلك الكنايات المخففة) ،ومن الوسائل التي اتكلت عليها الخنازير أيضا كان استخدام الخطب والأناشيد والشعارات والألقاب.[٢١١]

أما رواية(١٩٨٤) فقد استحدثت الحكومة لغة جديدة(نيو سبيك) وذلك لتحكم السيطرة على الشعب وتحد من حرية التفكير والفردانية في الدولة ،وهذه اللغة الجديدة تعمل في الأساس على تدمير الكلمات ،وفق هوى الأخ الأكبر والحكومة من أجل التحكم في الفكر وفي الناس وتنميطهم ،فتصبح جريمة الفكر مع الوقت صعبة الحدوث ذلك نتيجة لتدمير الكلمات التي تعبر عن بعض المفاهيم الدالة على الحرية .يظهر ذلك واضحا لنا في حديث سايم(إحدى شخصيات رواية ١٩٨٤)مع ونستون(الشخصية الرئيسة في الرواية) عن اللغة الجديدة والقاموس الخاص بها الذي يكرس له عدد كبير من الموظفين في وزارة الحقيقة: "الطبعة الحادية عشرة هي طبعة نهائية ،إننا نصوغ اللغة في شكلها النهائي،ذلك الشكل الذي لن يجري حديث بغيره.عندما نفرغ منه.فإنه سيتحتم على الآخرين من أمثالك أن يتعلموا من جديد مرة ثانية.لعلك تظن أن مهمتنا الرئيسية هي ابتكار كلمات جديدة ،لكن لا، ليس هذا ما نقوم به البتة ،إننا نقوم بتدمير الكلمات–عشرات بل مئات الكلمات كل يوم يجري تدميرها .إننا – نسلخ–اللغة حتى العظام.فالطبعة الحادية عشرة لن تحتوي على كلمة واحدة يمكن أن يبطل استخدامها قبل عام ٢٠٥٠م"[٢١٢]

ويفسر سايم الغاية من اللغة الجديدة في قوله:"ألا ترى أن الغاية النهائية للغة الجديدة هي التضييق من آفاق التفكير؟بحيث تصبح جريمة الفكر في نهاية المطاف جرما مستحيل الوقوع من الناحية النظرية ،وذلك لأنه لن توجد كلمات يمكن للمرء من خلالها أن يرتكب هذه الجريمة .فكل مفهوم يحتاج إليه الناس سيتم التعبير عنه بكلمة واحدة محددة المعنى وغير قابلة للتأويل ،أما معانيها الفرعية فيتم طمسها حتى تصبح طي النسيان .."[٢١٣]

وكان من أهدافهم أيضا أنه وبحلول عام ٢٠٥٠م ستكون الأدبيات القديمة التراثية قد اندثرت أو ترجم بعضها بواسطة اللغة الجديدة وبالتالي ستكون مختلفة بل ومناقضة لما اعتاده الناس،حتى أدبيات وشعارات الحزب ستتغير "إذ كيف يمكن أن تتبنى شعارا مثل(الحرية هي العبودية) فيما يكون مفهوم الحرية نفسه قد جرى نسفه؟ إن المناخ الفكري سيكون كله قد تغير.وفي الحقيقة لن يكون هنالك تفكير على النحو الذي نفهمه الآن ،فالولاء يعني انعدام التفكير ،بل انعدام الحاجة للتفكير.الولاء هو عدم الوعي."[٢١٤]

وهكذا يظهر بوضوح لنا العلاقة الجلية بين اللغة والفكر وكذلك توظيف السلطات اللغة للسيطرة والتحكم وتنميط الناس وإدماجهم في الأنظمة الجديدة.

وجدير بالذكر أيضا الإشارة إلى أن ما خطه أورويل في مقاله وكذلك في روايتيه هو جزء مما يعرف بالمغالطات المنطقية، وهي مجال دراسة المنطق غير الصوري ،وهو فرع من المنطق ليس بجديد بل أصوله ممتدة بدءا من أفلاطون في محاوراته ليوثيديموس وأرسطو وجون لوك وواتلي وشوبنهاور وجون ستيورات مل وبنتام والذين يمثلوا آباءًا لمنطق المغالطات [٢١٥]. والمغالطة بشكل عام هي"انحراف عن القواعد الضمنية التي تحكم شتى أصناف التداول الحواري."[٢١٦]

وهذه الانحرافات نجدها كثيرا في حياتنا سواء في الخطابات الشخصية أوفي الإعلام أوفي الخطابات السياسية .وإذا كانت الرواية الديستوبية تلتبس بالواقع السياسي تحديدا فلابد من ظهور مثل هذه المغالطات في السرد نفسه ،ولابد من استخدامها كأداة فاعلة للتأثير في الجمهور ولمحاجته، ولكن الحجة هنا تتكأ على طرف واحد فقط وهو المرسل ،لذا هي تندرج تحت(النموذج الايصالي للحجة)وفقا لتقسيم د.طه عبد الرحمن ،وهذا النموذج يظهر فيه بوضوح الفعل القصدي ،وهذه القصدية تتميز بأمرين هما:عدم انفكاك القصدية عن اللغة ،وتراتب القصدية .

والمقصود هنا بتراتب القصدية كما يقول د.طه عبد الرحمن"ذلك أن الحجة الموجهة تنطوي على طبقات من القصود (بمعنى النيات)وطبقات من المقاصد (بمعنى الأهداف) أما القصود فمنها القصد إلى إخبار المستمع بالحجة والقصد إلى إخباره بهذا القصد نفسه وهكذا، ومنها القصد إلى إقناع المستمع والقصد إلى تعريف المستمع بهذا القصد وهلم جرا .أما المقاصد فمنها الأفعال التي يريد المتكلم من المستمع القيام بها ومنها أيضا الأفعال التي تدله على اقتناع المستمع ،ومنها أيضا الأفعال المشتركة التي تفيده في بناء فعله الإقناعي."[٢١٧]

ولكن الخطاب السياسي الشمولي الوارد في الروايات الديستوبية وكذلك في الواقع –إن شئت التعميم–ليس قائما على قواعد الأفعال اللغوية الطبيعية التي حددها الكثير من الباحثين والمهتمين بهذا الأمر أمثال بول غرايس، ولكنها قائمة كما سبق وأشرنا على الانحراف في معظم الأوقات عن هذه القواعد، وإلى المغالطات المنطقية أو الحجاجية .فمثلا إذا كان من قواعد الفعل اللغوي (الكيف بمعنى لاتقل إلا ما تعلم صدقه، أو الجهة والتي تعني لتحترز من الغموض والاطناب والاضطراب)فسنجد أن أساس هذا الخطاب هو تدمير هذه القاعدة ،بمعنى لاتقل إلا ما تعلم كذبه، أو لابأس من الكذب والنفاق. واتبع الغموض في كل كلمة تقولها .

ومن أشهر المغالطات المنطقية التي تستخدم–والوارد جزء منها في الروايات الديستوبية –هي :

١–الاحتكام إلى عامة الناس:

وهذه المغالطة تعني"الاحتكام إلى الناس بدلا من الاحتكام إلى العقل ،ومحاولة انتزاع التصديق على فكرة معينة بإثارة مشاعر الحشود وعواطفهم بدلا من تقديم حجة منطقية صائبة ."[٢١٨]

هذه المغالطة إذن ترتكز على المشاعر والانفعالات وليس على العقل والبرهان ،ويستخدمها الكثيرون في الحياة عموما،وخاصة في الخطاب الإعلامي والسياسي.وهي مغالطة للأسف ناجحة جدا مع العوام ،والسبب في ذلك يرجع

إلى اختلاف سيكولوجية الجماهير عن سيكولوجية الفرد الواحد المنعزل ،فكما يقول غوستاف لوبون عن ذلك في كتابه المشهور والموسوم بسيكولوجية الجماهير أن"في بعض الظروف المعينة يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائصا جديدة مختلفة تماما عن خصائص كل فرد يشكله .فعندئذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد ،وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه .وعندئذ تتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة بدون شك ،ولكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة . " [٢١٩]وقد أسماها بالجمهور النفسي ،ويصبح هذا الجمهور خاضعا للوحدة العقلية للجماهير.وهو يكون "عرضة للتأثر بالكلمات والصور التي تقوده إلى اقتراف أعمال مخالفة لمصالحه الشخصية بشكل واضح وصريح." [٢٢٠] ولهذا الجمهور خصائصه النفسية التيُ يتكأ عليها في الخطاب ،وينجح معها الخطاب اللاعقلاني أو غير المنطقي على وجه التحديد ،فهو سريع الانفعال "فأعماله واقعة تحت تأثير النخاع الشوكي أكثر مما هي واقعة تحت تأثير المخ أو العقل"[٢٢١] لذا فهو يتأثر بالمحرضات والمثيرات المختلفة أيا كانت نوعها ،وبالتالي قد يصبح في مرحلة دموي وينتقل في مرحلة أخرى إلى البطولة المطلقة ،فيمكنه"بسهولة أن يصبح جلادا ولكن يمكنه بنفس السهولة أن يصبح ضحية وشهيدا."[٢٢٢] ومرتبط بهذه الصفة صفة سرعة التأثر وتصديقه لأي شيء،"فهو يخلط بين التضخيم الذي يلحق بالحدث وبين الحدث ذاته ،وبما أنه غير قادر على التمييز بين الذاتي والموضوعي فإنه يعتبر الصورة المثارة في خياله بمثابة الواقعية والحقيقية ،هذا على الرغم أنها ذات علاقة بعيدة جدا مع الواقعة المرئية."[٢٢٣]،ومحاجات الجماهير قد تكون بين أفكار بينها روابط سطحية ظاهرية ،وهم يميلون إلى "التعميم للحالات الفردية (...)والخطباء الذين يعرفون كيفية التلاعب بالجماهير يستخدمون مثل هذه الترابطات،فهي وحدها قادرة على تحريكهم والتأثير عليهم .وأما سلسلة المحاجات العقلانية الصارمة فلا يمكن أن تفهم إطلاقا من قبل الجماهير .ولهذا السبب يمكن القول بأنها لا تفكر أو أنها تفكر بشكل خاطئ،

و لا يمكن التأثير عليها عن طريق التفكير العقلاني."[٢٢٤] لذا فهذه المغالطة هي من أكثر المغالطات انتشارا ،وإذا دققنا النظر في المغالطات اللاحقة سنجد أن كثير منها مرتبط بالاحتكام إلى العامة بمكوناتهم النفسية المختلفة.

٢-التذرع بالوطنية:

في هذه المغالطة يلجأ المتحدث إلى المشاعر القومية أو الوطنية ليدعم بها حجته أو موقفه أو ليقوض موقفا آخر باعتباره منافيا للوطنية أو القومية. [٢٢٥]

٣-الاحتكام إلى القوة:

تقبع في صميم هذه المغالطة فكرة القوة تصنع الحق،وهي مغالطة لأن التهديد يعمل على مستوى دافعي مغاير لمستوى القناعة الفكرية.

٤-الاحتكام إلى النتائج:

من المغالطة أن نستخدم النتائج السلبية أو الإيجابية المترتبة على اعتقاد ما كدليل على كذب هذا الاعتقاد أو صدقه .(...) يمكن تجريد الصورة المنطقية لهذه المغالطة كالآتي:

الاعتقاد بأن (ق) تؤدي إلى نتائج غير مرغوبة

حيث النتائج المرغوبة غير ذات صلة بصدق(ق)

إذن (ق) صادقة .

أو كالتالي:

الاعتقاد بأن(ق) يؤدي إلى نتائج بغيضة

حيث النتائج البغيضة ذات صلة بكذب(ق)

إذن(ق)كاذبة.[٢٢٦]

٥-الاحتكام إلى السلطة:

يقع المرء في مغالطة الاحتكام إلى السلطة عندما يعتقد بصدق قضية أو فكرة لا سند لها إلا سلطة قائلها .قد تكون الفكرة صائبة بطبيعة الحال ،وإنما تكمن المغالطة في اعتبار السلطة بديلا عن البينة ،أو اتخاذها بينة من دون البينة."[٢٢٧]

وهذه المغالطة تتكأ عليها السلطات بكثرة ،ويؤمن العوام بها كثيرا، فلا يهم عندهم –في أحايين كثيرة– صدق البينة أو كذبها،الأهم من هو قائلها ،وكأن اتيانها من السلطة أيا كانت السلطة يغلق عقولهم أمام التفكير في هذه الحجة ،أو في هذه القضية عموما.

وهذا الأمر نجده واضح في كثير من الروايات الديستوبية ،بل وفي الحياة عموما.

٦–المنحدر الزلق:

تعني هذه المغالطة أن"فعلا ما ضئيلا أو تافها بحد ذاته سوف يجر وراءه سلسلة محتومة من العواقب تؤدي في نهاية المطاف إلى نتيجة كارثية .كل حدث في هذه السلسلة هو نتيجة ضرورية لما قبله وسبب للحدث الذي يليه."[٢٢٨]

٧– الألفاظ الملقمة\الألفاظ المشحونة\الألفاظ المفخخة:

تأتي هذه المغالطة من منطلق أن للغة وظيفة أسماها أوستن في نظرية أفعال الكلام بالوظيفة الإيعازية للغة وفي هذا المستوى من الأفعال الكلامية يريد القائل من قوله أن يحدث تأثيرا في المتلقي (سخط–روع–رهبة–إقناع..)،كما سماها كل من أوجدن وريتشاردز في كتابهما (معنى المعنى) الوظيفة الانفعالية .

وفي هذه المغالطة يتم الارتكاز على الألفاظ المشحونة بالعواطف والانفعالات ،أو استخدام ألفاظ ملونة كأن نستبدل بلفظة (صارم ..عنيد،أو واثق \متعجرف..)

ومنذ أفلاطون نهضت تيارات تستنكر ميل البشر إلى الاستمالة العاطفية بدلا من الإقناع العقلي ،وتحذر من استخدام الوظيفة الانفعالية للغة في إعاقة التفكير المنطقي والتعتيم على الحقيقة ،وفي زمننا المعاصر علت صيحات مدوية ضد الألفاظ الملونة وطغيان الكلمات.

وليس أدل على دور هذه المغالطة وتأثيرها على عامة الناس إلا قول هتلر في كتابه كفاحي: بواسطة الدعاية الذكية والمتواصلة يمكنك أن تحمل الناس على أن ترى الفردوس جحيما والعكس أيضا أن ترى أشقى أنماط الحياة على أنها النعيم المقيم.[٢٢٩]

هذه أشهر المغالطات التي نعتقد أنها تستخدم في الخطاب الإعلامي والسياسي والواردة كذلك في الروايات الديستوبية ،وإذا دققنا النظر فيها فسيبدو غالبا لنا أن جوهر هذه المغالطات واحد ،حيث ترتكز كلها على (الكذب أو غير المباشرة،والانفعالات بدلا من العقل) .وسيبدو لنا أيضا أن المتكلم قد يتبع أكثر من مغالطة في وقت واحد ،وأن بعضها يستلزم الآخر .

يظهر دور اللغة كفاعل رئيس في رواية (ممر الفئران)أكثر من الروايات الأخرى ،وذلك من خلال الآتي:

١- التقديس \التأليه لرمز السلطة(القومندان) من خلال ألفاظ اللغة:

في ممر الفئران لا يعلم الناس شيئا عن رمز السلطة سوى أوامره فقط، لم يروه قط ولم يسمعوه، أحاط نفسه بهالة قدسية. لنكتشف في النهاية أنه لاوجود له ،بل هم زمرة تحكم هذا العالم[٢٣٠].

يقول الكاتب: "من هو القومندان؟ومتى سمعوا عنه؟إنه كيان أورويلي غريب يذكرك بالأخ الأكبر الذي يراقبك دائما ،وبما أن أحدا لم يره فإنه تحول إلى معنى ورمز. (....)من هذا الرجل ؟من أين جاء؟ لا أحد يعرف .يقولون إنه راهب من رهبان التبت ..يقولون إنه ساحر شرير ..يقولون إنه نصف إله ..هو قوي جدا تسانده عصابة قيل إنها من الجنرالات السابقين المنشقين على جيوش الصين والاتحاد السوفيتي سابقا.هذا الرجل جاء حرفيا ليحكم العالم من مقره الشبيه بمقرات أشرار أفلام جيمس بوند .زيمكنه أن يراقب كل شيئ..يمكنه أن يقصف بصواريخه أية دولة متمردة.لكن النقطة الأهم هنا هي أنه يرى بينما الناس جميعا لايرون إنه فوق مستوى الظلام."[٢٣١]

ولكن كيف ترسخت هذه الصورة في أذهان عامة الشعب ؟؟

جاء ذلك من خلال أمور مختلفة منها إطلاق الألقاب عليه التي تشعر المتلقي بقدسية وبرهبة تجاه القومندان ،وبأنه يمتلك صفات لا يمتلكها العامة. فيقول عنه أتباعه مثلا أنه(راهب من رهبان التبت مثل الدلاي لاما)[٢٣٢] و أنه لا يظهر للعامة.

و"ليس من السهل أن ترى القومندان.فقط الدائرة المقربة منه تقدر.يتصرف كإله .لكنه إله لم يخلق النور بل انتفع بغيابه."[٢٣٣]

ولنكتشف كما قلت في النهاية أن السلطة ارتكزت على حقيقة الشعوب برغبتهم في الإيمان بفكرة مجردة،أو الميل إليها فخلقوا هذه الفكرة وجسدوها من خلال أمور مختلفة منها اللغة ،وتجسدت الفكرة في خيالهم حتى أضحت واقعا .يظهر ذلك من خلال الحوار السردي التالي:

" –لا يوجد قومندان.

استجمع الشرقاوي أعصابه فلم يصرخ ،وتساءل:

–ماذا تعني؟

–القومندان هو كل هؤلاء..تلك الزمرة الحاكمة ..الجنرالات والعلماء القادمون من روسيا والصين وبعض الدول الأوربية والأثرياء العرب ..القومندان فكرة ..لقد قرروا أن يصنعوا لأنفسهم مجتمعا مسيطرا خاصا بهم ..ولما كانت الشعوب ميالة إلى الفكرة المجردة ،ولدت صورة القومندان الذي كان راهبا آتيا من التبت ..في الحقيقة لا وجود له ..لا وجود له على الإطلاق.

–والكلام عن النبوءة وكل مايقال عن إجادته السحر ،إلخ؟

–كل هذا هراء يؤمن به الجميع حتى معظم الضوئيين ..ما لدي من معلومات يؤكد أن القررات تصدر جماعية لكنهم يضعون عليها اسم(القومندان)"[٢٣٤]

٢–**استعان بالخطب والبيانات:** و كان وسيلة الإعلان عنها طريقتين (شفهية من خلال مكبرات الصوت ،ومكتوبة بطريقة برايل تلصق على المنازل وفي كل مكان) ،وقد ركز في بيانه الأول على مجموعة من العناصر منها:

،وذلك يظهر لنا في الخطاب الذي ألقي على مسامع الناس ووزع عليهم : يقول"اعلموا أن القومندان هو القلب الذي يرعاكم ويعني بكم ،ويوفر لكم حياة كريمة .لكنه في الآن ذاته يحكم العالم ،وليس بوسع أحد أن يقاومه ،القومندان لا يطالبك بشيء ولا يرغمك على التخلي عن دينك ووطنك أو مالك أو عرضك ..المسلمون سيظلون مسلمين ..المسيحيون سيظلون مسيحيون..اليهود يبقون يهودا ..وكذا يبقى البوذيون والكونفوشيوسيون والهندوس..فقط يطلب القومندان أن تقدموا له نسبة من منتوج بلادكم مقابل حمايتكم ،وأن تقبلوا بسلطته."[٢٣٥]

يظهر لنا في بداية البيان حديث الرأفة الذي يرتكز عليه القومندان فهو يؤكد العاطفة الأبوية تجاه الشعب فهو (القلب الذي يرعاهم)وهو القادر على توفير الحياة الكريمة للشعوب كلها وقادر على حمايتهم ،ولن يطالبهم بالتخلي عن أرضهم أو دينهم أو عرضهم ،ولكن في المقابل يطلب منهم أمرين (تقديم جزء من منتجات بلادهم ،والقبول بسلطته)بمعنى الخضوع التام لأوامره ونواهيه ،وإن لم يفعلوا ذلك فستكون العواقب وخيمة وذلك وارد في رسائله التهديدية المتضمنة في الخطاب منذ بدايته إلى نهايته

(القومندان يرى لهذا يقدر على حمايتكم كما أنه يقدر على إيذائكم)

ويستند الخطاب هنا إلى مغالطة الاحتكام إلى القوة ،وهو رغم أنه قال في بداية البيان أنه لا يطالبهم بشيء ولا يرغمهم على التخلي عن الوطن أو الدين أوالمال أو العرض ،إلا أنه قد اختار لهم عقيدتهم.

"القومندان اختار لكم الظلام .عقيدتكم هي الظلام.الظلام مقدس .الظلام طاهر .لهذا يجب أن تعيشوا فيه أبدا .النور دنس يلوث الظلام لهذا يحرم عليكم البحث عنه.لا أحد يشعل نارا حتى لو كان هذا ممكنا .لا أحد يبحث عنها .إن النار حق أصيل للقومندان وليس من حق سواه.)

والفقرة السابقة هي حجة أخرى باطلة استند فيها إلى قوته وسلطته ،فالكلام نابع هنا من السلطة لذلك هو حق ،وإن لم يستمعوا إليه فتكون عاقبتهم الموت، يقول: (إن من يجرؤ على استعمال النار أو البحث عنها يرتكب إثما يقترب

مما يسميه أتباع الديانات بالكفر .جزاء استعمال النار بأي شكل هو الموت ..العذاب ثم الموت.)

ويؤكد في نهاية البيان أنه لا يطلب سوى التخلي عن الكبرياء ومنحه الولاء والطاعة.

وفي هذه الخطاب يصل للمتلقي رسائل أخرى إضافة إلى ماسبق حيث عليك أن تقتنع أنك في حالة وهن وضعف وأنك لابد أن تشعر بالامتنان العميق لوجودك في ممر الفئران وفي عالم الظلام فهذا هو الأفضل لك .وهناك من يحبك ويحميك ويوفر لك الأمان وهو لا يطلب الكثير فقط التخلي عن النور والكبرياء والسمع والطاعة .بمعنى آخر التخلي عن الحرية وعن الفكر.

الصحيح والصدق وما عداه كذب . [٢٣٦] ،ويظهر من هذه الفقرة السابقة الدور الذي لعبته اللغة جنبا إلى جنب مع أمور أخرى مثل الإعدام في ترسيخ هذه القناعة (النور خطيئة ..الظلام نعمة)لدى الناس.

حتى هذه الإجراءات التي تتخذها السلطة ضد(مدنسي الظلام\النورانيين)كانت تصاحبها الاتكاءإلى اللغة بصفاتها المختلفة ووظائفها خاصة الانفعالية منها ،ونتيجة لذلك أصبح هناك تأييد شعبي كبير جدا لعقيدة الظلام .

يظهر ذلك بوضوح في عملية إعدام تقليدية :

"في ممر الفئران الضيق ،كان يمشي في الدرب يتحسس الجدران ،عندما سمع من ينادي بصوت جهوري:

–تعالوا .تعالوا واسمعوا مصير الهراطقة..تعالوا واسمعو نهاية المجدفين!(لاحظ دلالة الكلمات والأثر الذي تحدثه في نفس المستمع إضافة إلى الاتكال على طبقة صوتية مرتفعة ،وذلك كفيل بدفع الناس إلى الإيمان بالحجة)

صوت صخب ..خطوات..هناك زحام في مكان ما..الموقف يبدو مألوفا ..ثمة شيء مماثل مر به من قبل.

ثم سمع الصوت الجهوري يتلو.

-بأمر القومندان الهرطيق كمال ثروت قد ارتكب جريمة الضياء .جرب أن يستولد الضوء بخلايا بيولوجية ،وقد أبلغ عنه جيرانه .لقد ظفرنا به ولسوف يلقى عقابه المستحق.

كان هناك من يصرخ بصوت مذعور:

-أقسم لكم أنني...

(.....)

هتف أحد الواقفين:

-يستحق!

وقال آخر في رضا:

-إنه لمما يثلج القلب أن تتحقق العدالة في هذا الزمن .

-فلينصر الله القومندان.

كان يتساءل عن طريقة الإعدام في عالم لا يرى .رجال الشرطة يرون بالنظارات الليلية ،لكن لابد من عنصر العبرة في الأمر .لابد من صوت مخيف يحفر في ذاكرة الناس المترددين .ثم سمع صوت النباح .النباح الخفيض المخيف..نباح الكلاب المنذر بتمزيق من أمامها.

سمع كذلك صوت جنازير،فأدرك أن هناك من يمسك بعدة كلاب ،ثم سمع صوت التمزيق والصراخ والعويل التوسل.النباح.

(....)وسمع الشرقاوي شهيق الإثارة من حوله ..الكل يلهث كأنه في مضاجعة حامية.وسمع من يقول:

-فليتألم!

ومن يقول:

_فليتعذب

ومن يقول فليتوجع

(...) كان هناك مناخ عام من الانتشاء بالعدالة ،لكن الشرقاوي أدرك أن الرائحة الغالبة هي أقدم عاطفة شعربها الإنسان:السادية .مهرجان الدم في سيرك روماني.ابتعد وهو يرتجف.

كما هم العامة الجهلة في كل مكان وزمان..يعشقون العبودية ويهوون الخضوع.ويقنعون أنفسهم أنهم يكرهون ما يكرهه الحاكم ويحبون مايحبه.أي أنك لا تطيع الحاكم.بل تطيع نفسك أولا .فإذا حاول أحد أن يوقظهم من غيبوبتهم مزقوه تمزيقا."[٢٣٧]

٣-**اعتمدت السلطة أيضا على اطلاق ألفاظ مغالطة ومنافية للحقيقة للنورانيين تحمل تضخيم ومغالطة وتزييف .

وهي ألفاظ ليس لها علاقة بما يفعلوه.

ومنها(متمرد-كافر-زنديق-مجدف-هرطيق)

أو (لوث الظلام-مارس خطيئة النيران-تدنيس الظلام-الهرطقة)[٢٣٨]

يصف الكاتب الشرقاوي بعدما سمع بعض من هذه الألفاظ توجه إليه ومدى استغرابه لها قائلا:" تلويث الظلام."دنس.""هرطقة" هذه اللغة القروسطية أثارت هلعه. لم يعرف أنه ارتكب كل هذه التهم ،لكنه يمكنه تخيل العقاب وهو لن يقتصر على السجن.منذ فجر التاريخ ومصير الزنادقة هو قطع الرقبة أو الحرق ..مصير المتمردين لا يختلف كثيرا."[٢٣٩]

وجدير بالذكر الإشارة إلى أن هذه المغالطات المستخدمة في رواية(ممر الفئران) هي جزء من المغالطات المستخدمة في روايات جورج أورويل ،وذلك يؤكد التأثير الكبير لروايات أورويل على كثير من الروايات الديستوبية ،وهو تأثير لم يخفه أحمد خالد توفيق-مثلا- بل أثبته في مرات مختلفة تمثل في ذكره صراحة لاسم أورويل ونبؤاته،وكذلك للغة الأوروبلية.وذلك يؤكد أيضا ما قاله د.سعيد يقطين من كون النص الروائي الغربي يمثل "عنصرا أساسيا ومقوما هاما بالنسبة للخطاب الروائي العربي ،لأن الكاتب العربي ،بصورة أو بأخرى ،ضمنا أو مباشرة ،يتفاعل مع هذا النص فيستفيد من تقنياته وأساليبه

وأشكاله(...)إنه بمثابة اللاشعور الروائي الكامن في الكتابة الروائية بشكل عام."[٢٤٠]

وبذلك كما رأينا فإن اللغة مثلت شخصية رئيسة لها دورها الرئيس في الرواية الديستوبي ،وقد ظهر هذا الدور بقوة في رواية ممر الفئران دونا عن غيرها من الروايات محل الدراسة ،وربما كان ذلك لأن هناك طرفان يحدث بينهما خطاب تواصلي ممثلان في الرواية وهما (السلطة والشعب) .

وقد ظهرت الكثير من المغالطات المنطقية في هذا الخطاب وخاصة الاحتكام إلى القوة والسلطان،الألفاظ المفخخة .

(٦)

الرواية الديستوبية العربية ...إلى أين؟؟؟

بعد عرض هذه الروايات الديستوبية بمظاهرها المختلفة نسأل سؤالا بديهيا ومنطقيا يلح علينا وهو ما الذي تغير حتى نشهد موجة من هذه الروايات في الوطن العربي في ذلك الوقت تحديدا ،والتي نتوقع أن تتزايد أكثر في الفترة القادمة خاصة مع إقبال القرّاء عليها؟

وهنا يكون لدينا مجموعة من الاحتمالات التي نطرحها ونعرضها للمناقشة:

أولا/ التأثير الغربي:

أول شيء قد يخطر ببال الإنسان عموما هو التأثير الغربي على البيئة العربية وخاصة لسبقها لنا بسنين كثيرة ،إضافة إلى العامل الأهم وهو ترجمة هذه الروايات إلى العربية من جهة ، ومن جهة أخرى وصولها إلينا من خلال السينما ممثلة .وهذا عامل لا ننكر أهميته أو دوره ولكنه ليس العامل الأوحد ،فهذه الروايات موجودة منذ فترة طويلة ومترجمة ولكن ذلك لم يدفع الكتاب إلى الكتابة في نفس هذا الإطار.

ثانيا/ سياق الإنتاج المبدع:

يتعلق الاحتمال الثاني بسياق الإنتاج والدافع إلى انتاج هذه الأعمال الأدبية ،حيث يشهد المجتمع العربي تغيرات كبيرة جدا في الأنساق الاجتماعية

والسياسية والخلقية ،أدت إلى زيادة في حالات الكبت لدى الشباب وكذلك فقدان الحرية والتعبير اللذين ولدا حالة غير مسبوقة من اليأس حينا واللامبالاة بما يمكن أن يحدث في أحايين أخرى بحجة أنها كما نقول(معدتش فارقة أو كله زي بعضه) ،وذلك دفع جيل الشباب من الكتاب تحديدا إلى محاولة كسر هذه الأسوار من خلال الكتابة بطرق غير تقليدية وغير مألوفة عن المجتمع العربي،ويمكن أن يكونوا استعانوا بالنموذج الغربي كدليل لهم ،ولكن تظل التجربة لها خصوصيتها العربية، ومن رحم هذه المعاناة ولد الإبداع.وظهر هذا النمط كمتنفس للتعبير عن الغضب من جهة وللمشاركة المجتمعية من جهة أخرى. إذن التغير في السياق الإنتاجي له دور كبير في إبداع الروايات الديستوبية .

ثالثا/ سياق التلقي القارئ العربي:

يتعلق هذا الاحتمال وهو غاية في الأهمية بالقارئ العربي وتفضيلاته لأنماط بعينها، فأي نص وجد ليقرأ ،وحياة النص تكمن في قراءته لذلك لا معنى غالبا لنص ليس له قراء ،فإذا كان المؤلف هو الأب البيولوجي للنص فالقارئ هو الأب الروحي والحقيقي للنص. وباستقراءنا للساحة العربية سنجد أن تفضيلات الشباب وميولهم قد تغيرت بشكل جلي عن السابق وذلك شيء طبيعي ،فلكل عصر ذوقه ،ولكل جيل ما يفضله من أنماط الفنون المختلفة .ولقد تغيرت الذائقة عن ذي قبل من أكثر من جهة ،فمن جانب سنجد أن الجيل الحالي يفضل كل ما يلامس حسه بشكل كبير ويوصله لأعلى درجات الانفعال والإثارة والتشويق وكل ما هو ممتع ومثير للوجدان والخيال ،ويبتعد تماما عن الأمور المألوفة والمكررة بل ويمل منها سريعا. لذا ستكون مجاراته شيئا عسيرا لأن ذلك يتطلب من الكتاب التجديد والتغيير طوال الوقت الانحراف عن المألوف ،وما هو مثير وجديد اليوم سيصبح غدا ممل وقديم ومألوف. لذلك سيتضح لنا هذا الأمر أكثر إذا نظرنا للسينما التي يفضلها الشباب وهي الصورة الممثلة للروايات المفضلة عندهم ، فقد فطنت السينما العالمية تحديدا لهذه الأمور

فاهتمت بإدخال"العقارب المفترسة والنمل الكبير والفيضانات والزلازل والجرائم وأفلام العصابات والقصص البوليسية والخيال العلمي والكائنات الغريبة والحيوانات الضارية ،وكل ما من شأنه أن يستثير حب الاستطلاع والخوف والترقب والتوتر والتوجس أولا ،ثم التخفف والراحة بعد ذلك."[٢٤١]

والمتلقي العربي أصبح أكثر من ذي قبل في حاجة ماسة لما يطلق عليه المشهدية الكاملة لكل أنواع المثيرات البصرية والسمعية والشمية ،وذلك ما اتكأ عليه محمد ربيع في عطارد فعمل على إيصال القارئ للإثارة الكاملة من خلال رسم مشاهد متكاملة تتكأ على هذه العناصر الثلاث (صورة الدم والقتل والخراب ،وسماع الألفاظ النابية القبيحة والاتكاء على وصفه لرائحة الدم والقذارة)فأوصل القارئ إلى شعور عام بالتقزز والنفور من كل ما حوله .

وحجم القراءات الضخمة لهذه الروايات الديستوبية –محل الدراسة–وهي بالمناسبة من أكثر الكتب قراءة لسنوات متتالية في الوطن العربي وتحديدا في مصر يؤكد ما سبق وذكرناه ،ويؤكد كذلك النظرية السيكولوجية الخاصة ببرلين والتي تقول أن"الحب والتفضيل لأي مثير يقوم على أساس جهد الاستثارة الخاصة بهذا المثير .ويقصد بجهد الاستثارة مقدار الاستثارة العصبية العامة التي يستطيع هذا المثير إنتاجها في قشرة المخ ،وجهد الإستثارة الخاص بأحد المثيرات تحدده خصائص المقارنة الخاصة به مثل جدته وتركيبه وقدرته على الإدهاش والبعد عن التعبير المباشر والأحداث سهلة التنبؤ بها..إلخ"[٢٤٢]

ومن تفضيلات هذا الجيل أيضا والذي تراعيه بعض أنواع السينما العالمية والروايات العالمية هو عرض ما يعانيه المجتمع وحيرته وافتقاده الجوهري للتماسك والحقيقة ،وذلك من خلال أحداث عنف كبيرة ومشاهد دموية ومثيرة مع عرض"لمسة إنسانية بسيطة مرهفة شديدة الرقة والحساسية تتمثل في قصة حب تكتمل مع نهاية الفيلم ،أو حكاية طفل يُنقذ أو أسرة مفككة تستعيد تكاملها."[٢٤٣]

وهذه اللمحات الإنسانية الممزوجة في هذه الروايات الديستوبية وجدناها واضحة في يوتوبيا خاصة في موقف جابر من راسم وجرمينال حينما أصر على

إنقاذهما وإعادتهما إلى يوتوبيا لكي يحفظ لنفسه بعض الإنسانية ،وهذا الحدث هو الذي غير مسار الرواية وأنهاها النهاية المؤلمة للمشاعر بشكل كبير .وكذلك نجدها واضحة في قصص الحب بين أطراف مختلفة في قواعد جارتين ،فرغم كل الظلم والفساد في جارتين إلا أن هذه اللمحات الإنسانية المتشابكة مع كم الإثارة والإدهاش جعلت الرواية من المفضلات.

إذن تكمن المعادلة التي يبحث عنها هذا الجيل هو (كم كبير من التشويق والإثارة بأشكاله المختلفة وطرقه المتعددة مع تحريك عواطف الحب أو اللمسات الإنسانية) ليحرك كل أشكال الشعور لديه الإيجابية كالحب والرفق والحنان والإيثار والسلبية كالغضب والكره والتقزز والاشمئزاز والعدوان .وبذلك يكون محصل القراءة لهذه الأنواع خبرات قوية ومكثفة معرفية وانفعالية .ومتعة حاصلة من الشحن الانفعالي والإثارة الانفعالية الكبيرة.

وإذا كانت هذه الأسس متحكمة في تفضيلات الجيل الحالي تحديدا نظرا لتغير الحياة وطبيعتها السريعة فلذلك سنجد أن روايات الخيال العلمي وروايات التشويق والإثارة أضحت المفضلة عند الشباب . ولا يعني ذلك أن الأنماط الأخرى لا يفضلها الشباب بل لها جمهورها وإن كان أقل بكثير من الأولى ،وهناك من هذه الأنماط من له جمهوره لأنه حافظ على معدل التشويق في العمل الأدبي لآخر لحظة وكسر أفق توقع القارئ بطرق مختلفة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الشباب قد أقبلوا على هذه الروايات الديستوبية الغربية منها والعربية لنفس السبب الذي كتب الكتاب من أجله هذه الروايات فهي متنفس لهم تعبر عن توقعاتهم وخيباتهم وإحباطاتهم ويأسهم ،هم يحيون بالكلمة، ولولا الكلمة لربما كانوا دُفعوا للإجرام أو الانتحار.

إذن هذه الاحتمالات الثلاثة والتي تندرج تحت سياق الإنتاج وسياق التلقي هي الدافع الأساسي من وجهة نظرنا لانتشار هذا النمط الروائي في هذه الفترة. وهي التي ستتحكم في انتاجها في الفترات المقبلة.

الخاتمة :

توصلت في بحثي هذا إلى مجموعة من النتائج منها:

١- اتجه عدد من الكتاب المصريين لكتابة الروايات الديستوبية وسيلة لنقد الواقع ،وللتحذير من مغبة التمادي في تجاهل كل المنذرات الخطرة في المجتمع، واعتبر الكاتب أحمد خالد توفيق رائدا في هذا النمط الأدبي ،وذلك من خلال روايتيه(يوتوبيا)و(ممر الفئران) ، وتلاه العديد من الكتاب الشباب .

٢-تعتبر الموضوعات السياسية والاجتماعية والقيمية الأخلاقية هي أهم ما ارتكزت عليه الرواية العربية من محاور في تجربتها الديستوبية ،لذا كانت أهم مظاهر الرواية الديستوبية العربية تظهر جلية في:

-تكريس الطبقية

-طمس التاريخ

-مراقبة الأفكار وتزييف الوعي.

-التحول القيمي.

-الدموية

-التحلل الديني والخلقي.

-العبثية واللامبالاة.

٣-كان للغة في الرواية الديستوبية دوران رئيسان حيث استخدمت كوسيلة للتعبير عن العوالم الديستوبية المختلفة بمظاهرها المتعددة،كما استخدمت كشخصية رئيسة فاعلة في الخطاب السياسي داخل السرد وهو الصورة المنعكسة للواقع ،من حيث توظيف السلطات للغة كوسيلة للسيطرة والتحكم والتنميط وإدماج الناس في الأنظمة الشمولية المختلفة ،لذا فقد اتكأت على المنطق غير الصوري الذي يعتمد في الأساس على المغالطات الحجاجية بأنواعها. حيث لم يكن الخطاب السياسي الشمولي الوارد في الروايات

الديستوبية قائما على قواعد الأفعال اللغوية الطبيعية ،إنما على الانحراف عن هذه القواعد .

وترتكز غالبية هذه المغالطات على الكذب وغير المباشرة ،وكذلك على الخطاب الانفعالي والعاطفي بديلا عن الخطاب العقلي والمنطقي.

٤-كان لجورج أورويل أكبر التأثير في كثير من الروايات الديستوبية وذلك يوحي بعدم انقطاع فكره وأيدلوجيته رغم مرور الزمن ،ونجد ذلك الأثر أكثر وضوحا في رواية ممر الفئران للكاتب أحمد خالد توفيق.

٥-انتشرت الروايات الديستوبية بين قطاع كبير من جيل الشباب أكثر من الكبار وذلك ينبئ بتغير ذائقة القراء ،وكذلك انتشار هذا النمط من الروايات في الفترات القادمة كموجة أخرى لنقد الواقع مختلفة عن المذاهب والاتجاهات الأخرى التي سادت الوطن العربي في العقود السابقة . إذ لوحظ لونا من ألوان التماهي والاتفاق بين منتج الرواية الديستوبية وجيل الشباب الذي شعر بأهمية هذا الخطاب الجديد الذي يتوافق مع ما يشعر به من تغير وتحلل.

قائمة بالمصادر والمراجع

أولاًالمصادر :

** أالروايات العربية:

*أحمد خالد توفيق:

١-يوتوبيا:دار ميريت للنشر (القاهرة)الطبعة الأولى(٢٠٠٨)

٢-ممر الفئران: الكرمة للنشر:٢٠١٦م

*عمرو عبد الحميد:

٣- قواعد جارتين:عصير الكتب للنشر والتوزيع:الطبعة الأولى :يناير ٢٠١٨م

٤-(قواعد جارتين ٢)دقات الشامو:عصير الكتب:يناير ٢٠١٩م.

* محمد ربيع:

٥-عطارد:التنوير :الطبعة الأولى ٢٠١٥م

** بالروايات الأجنبية:

*ألدوس هكسيلي:

٦-عالم جديد شجاع:ترجمة مروة سامي:عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع(لبنان) :الطبعة الأولى ٢٠١٦م

*جورج أورويل:

٧- مزرعة الحيوان:ترجمة محمود عبد الغني:المركز الثقافي العربي(الدر البيضاء-المغرب):الطبعة الأولى(٢٠١٣م)

٨- ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون(١٩٨٤م):ترجمة أنور الشامي:المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء-المغرب):الطبعة الثالثة(٢٠١٣م)

ثانياالمراجع:

أ- المراجع العربية:

١-(د)حميد لحمداني:أسلوبية الرواية: مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء:الطبعة الأولى ١٩٨٩م

٢-(د)جبور عبد النور- المعجم الأدبي::دار العلم للملايين: الطبعة الثانية:١٩٨٤م

٣-(د)سعيد علوش(معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة):دار الكتاب اللبناني:الطبعة الأولى(١٩٨٥م)

٤-(د)سعيد يقطين:قضايا الرواية العربية الجديدة(الوجود والحدود):الدار العربية للعلوم ناشرون(الجزائر):الطبعة الأولى(٢٠١٢م)

٥-(د)سعيد يقطين:السرد العربي مفاهيم وتجليات: الدار العربية للعلوم ناشرون(الجزائر):الطبعة الأولى(٢٠١٢م)
٦-(د) شاكر عبد الحميد:التفضيل الجمالي(دراسة في سيكولوجية التذوق الفني):الهيئة العامة لقصور الثقافة:القاهرة ٢٠١٦م
٧-(أ.د) محمد عبد الحميد خليفة (استشراف الرواية الثورة المصرية ٢٥يناير ٢٠١١،أشكاله وأدواته الفنية)في كتابه جبروت الرواية:دارالوفاء(الإسكندرية):الطبعة الأولى:٢٠١٤م.
٨-(د)محمد النويهي :عن الشعر الجاهلي (منهج في دراسته وتقويمه):الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة):د.ت
٩- مجمع اللغة العربية (القاهرة):معجم مصطلحات الأدب:إشراف عام فاروق شوشة ،دامحمود علي مكي:٢٠٠٧
١٠-(د)مصطفى النشار:فلسفة التاريخ (نشأتها وتطورها من الشرق القديم حتى تويني):نيوبوك للنشر والتوزيع:الطبعة الأولى :٢٠١٧م
١١-(د)عادل مصطفى :المغالطات المنطقية(فصول في المنطق غير الصوري):المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠٧م
١٢-(د)عبد الواحد لؤلؤة :الأرض اليباب (الشاعر والقصيدة) ت.س إليوت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت):الطبعة الثالثة :١٩٩٥م
١٣-(د)عبد الوهاب المسيري موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية -ج٢
١٤-(د)عبد الملك مرتاض:في نظرية الرواية(بحث في تقنيات السرد):عالم المعرفة:(١٩٩٨م)
١٥-(د) طه عبد الرحمن:التكوثر اللغوي:المركز الثقافي العربي:الطبعة الأولى:١٩٩٨م

ب -المراجع المترجمة:

١-آن ماري توماس،كيث بوكر:المرجع في روايات الخيال العلمي:ترجمة عاطف يوسف محمود:المركز القومي للترجمة(القاهرة): الطبعة الأولى(٢٠١٠م)
٢-إيمان تاور سارجنت:اليوتوبية:ترجمة ضياء ورّاد:مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة:الطبعة الأولى ٢٠١٦م
٣-ديفيد سيد:الخيال العلمي:ترجمة نيفين عبد الرؤوف:مؤسسة هنداوي
٤-ماريا لويزا برنيري:المدينة الفاضلة عبر التاريخ :ترجمة د.عطيات أبو السعود،مراجعة د.عبد الغفار مكاوي:عالم المعرفة (الكويت):١٩٩٧م

٥-فرانز فانون:معذبو الأرض:ترجمة:دسامي الدروبي،د.جمال الأتاسي:مدارات للأبحاث والنشر :الطبعةالثالثة(يناير ٢٠١٧م)
٦-غوستاف لوبون:سيكولوجية الجماهير:ترجمة قسم الترجمة بمؤسسة اقرأ:مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع-مكتبة الفنون والآداب:الطبعة الأولى(٢٠١٥م)

جاالمجلات والمواقع الاليكترونية:

١- أحلام بن الشيخ:مشهديات الديستوبيا في رواية(جملكية آربيا) لواسيني الأعرج:مجلة العلامة:العدد السادس٢٠١٨م
٢-أحمد عبدالرازق الحسيني: ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في الرواية العراقية .دراسة سيميائية: كلية الآداب (جامعة بغداد):العدد١١٢: (٢٠١٥)
٣-بلال دربال:السياسة اللغوية المفهوم والآلية :مجلة المخبر:جامعة بسكرة:الجزائر :العدد العاشر (٢٠١٤م)
٤-جورج أورويل:السياسة واللغة الإنكليزية:ترجمة عدي الزعبي:الجمهورية نت:http\\www.aljumhuriya.net\ar\38285
٥-عماد عبد اللطيف:اللغة والثورة (نقد الخطاب السياسي في أعمال جورج أورويل):مجلة نزوى:maaber.50megs.com\issue.april12\lookout1htm
٦-علي القاسمي:السياسات اللغوية بين التطوير والتدمير:بحث مقدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة(أبريل٢٠١٨م) :منشور اليكترونيا:http\\www.hamassa.com\2018\05\02
٧فاطمة برججكاني:الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة ،قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ذبيان:إضاءات نقدية :السنة الثامنة :ع٢٩:آذار ٢٠١٨
٨-داكوثر عياد:أدب الخيال العلمي في المغرب العربي:المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:اجتماع خبراء أدب الخيال العلمي في الوطن العربي:تونس(٢٠٠٩)
٩- ياسر درويش أحمد: ماوراء المصطلحات الصهيونية:الأغيار: مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية:
http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=5942(مركز
١٠-https://ar.wikipedia.org/wiki أغيار_(يهودية)،/

****دا الرسائل الجامعية:**

١- سمراء شلوش:جدلية اللغة والمجتمع: رسالة ماجستير:إشراف الشافعي بديار:جامعة العربي بن مهيدي(الجزائر):٢٠١٥م

الإحالات والهوامش:

١ –للمزيد عن العلاقة بين الأدب واستشراف المستقبل انظرأ.دامحمد عبد الحميد خليفة (استشراف الرواية الثورة المصرية ٢٥يناير ٢٠١١،أشكاله وأدواته الفنية)في كتابه جبروت الرواية:دارالوفاء(الإسكندرية):الطبعة الأولى:٢٠١٤م.

٢ –د.مصطفى النشار:فلسفة التاريخ (نشأتها وتطورها من الشرق القديم حتى تويني):نيوبوك للنشر والتوزيع:الطبعة الأولى :٢٠١٧م:صـ١٠

٣ –نفسه:صـ٣٧

٤ – نفسه:صـ٣٨(بتصرف)

٥ – لنا في السرد المتكرر عن غرناطة مثالا،والذي يتعدى أحيانا ذلك الهدف سابق الذكر إلى التحذير من عواقب التغافل عما يحدث في الحاضر .

٦ –نفسه:صـ٤٤

٧ –د.محمد النويهي :عن الشعر الجاهلي.

٨ –سعيد يقطين:قضايا الرواية العربية الجديدة(الوجود والحدود):الدار العربية للعلوم ناشرون(الجزائر):الطبعة الأولى:٢٠١٢م:صـ٤٠

٩ –داكوثر عياد:أدب الخيال العلمي في المغرب العربي:المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:اجتماع خبراء أدب الخيال العلمي في الوطن العربي:تونس(٢٠٠٩)/صـ٣

١٠ –معجم مصطلحات الأدب:مجمع اللغة العربية (القاهرة):إشراف عام فاروق شوشة ،دامحمود علي مكي:٢٠٠٧:صـ٨٤،وانظر أيضا د.سعيد علوش(معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة):دار الكتاب اللبناني:الطبعة الأولى(١٩٨٥م):صـ١٠٣

١١ –انظر:كيث بوكر،آن ماري توماس:المرجع في روايات الخيال العلمي:ترجمة :عاطف يوسف محمود:المركز القومي للترجمة :الطبعة الأولى(٢٠١٠م)

١٢ –كوثر عياد:أدب الخيال العلمي في المغرب العربي:صـ٦

١٣ –نفسه:صـ٥

=

=

=

١٤ –توماس مور:كان محاميا وسياسيا وكاتبا انجليزيا معروفا بأنه ذو توجه إنساني ينتمي لعصر النهضة ،ومناهض لحركة الإصلاح البروتستانتي .أنعم عليه هنري الثامن برتبة فارس نظير خدماته التي قدمها له ،وأعدم بسبب رفضه التةقيع على قسم يعترف فيه بهنري الثامن رئيسا للكنيسة في إنجلترا ،وأعلنته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قديسا في عام ١٩٣٥م .وأشهر كتبه كان (يوتوبيا)١٥١٦م.(إيمان تاور سجنت:اليوتوبية:صـ١١

١٥ –في كتابه صور مور سفينة تكتشف جزيرة غير معروفة تأسس عليها مجتمع قائم على مساواة واسعة النطاق ،لكنه كان يحكمه رجال حكماء كبار السن.إنه مجتمع هرمي أبوي ،له قوانين صارمة جدا وعقوبات قاسية ،لكنه كان يوفر حياة لمواطنيه أفضل كثيرا من الحياة المتوفرة لمواطني إنجلترا حينها،إنها تتحدث عن أماكن طيبة (تصبح فيما بعد سيئة) وتمثلها كما لو كانت حقيقية ،فتستعرض أناسا يعيشون حياتهم اليومية،وتصور الزواج والأسرة والتربية والوجبات والعمل وما شابه ذلك ،إضافة إلى النظم السياسية والاقتصادية.(انظراليوتوبية:صـ١٠)

١٦ –معجم مصطلحات الأدب:صـ٨

١٧ –ماريا لويزا برنيري:المدينة الفاضلة عبر التاريخ :ترجمة د.عطيات أبو السعود،مراجعة د.عبد الغفار مكاوي:عالم المعرفة (الكويت):١٩٩٧م:صـ٩

١٨ –نفسه:صـ٩

١٩ –إيمان تاور سارجنت:اليوتوبية:ترجمة ضياء ورّاد:مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة:الطبعة الأولى ٢٠١٦م:صـ١٢

٢٠ –نفسه:صـ١٠

٢١ –المدينة الفاضلة:صـ٤٩

٢٢ –نفسه:صـ٥٠

٢٣ –نفسه:صـ٥١

٢٤ –نفسه

٢٥ –نفسه:صـ٤٨

٢٦ –إيمان تاورسارجنت:اليوتوبية:صـ١٣

=

=

=

٢٧ –ديفيد سيد:الخيال العلمي:ترجمة نيفين عبد الرؤوف:مؤسسة هنداوي :صـ٧١

٢٨ – تعتبر رواية(إدوارد بيلامي–النظر إلى الماضي١٨٨٨م)من أعلى الروايات اليوتوبية قراءة في أواخر القرن التاسع عشر وأوسعها انتشارا.وقد قامت روسيا القيصرية بحظرها وذلك زاد في انتشارها .(ديفيد سيد:صـ٧٦)

٢٩ –إيمان تاورسجنت:صـ١٥

٣٠ –نفسه:صـ١٣

٣١ –لسنا بصدد الحديث عن تاريخ اليوتوبيا في هذا البحث لذا نحيل إلى كتاب (اليوتوبية)لإيمان تارجست ،وبه عرض مفصل لليوتوبيا ،وكذلك كتاب المدينة الفاضلة عبر التاريخ :لماريا لويزا برنيري

٣٢ –ديفيد سيد:صـ٧٥

٣٣ –إيمات تارجست:صـ٢٧

٣٤ –نفسه:صـ٣٢

٣٥ –نفسه:صـ٣٣

٣٦ –آن ماري توماس،كيث بوكر:المرجع في روايات الخيال العلمي:ترجمة عاطف يوسف محمود:المركز القومي للترجمةٍ(القاهرة):٢٠١٠:صـ١٢٧

٣٧ –نفسه:صـ١٢٧

٣٨ –نفسه:صـ١٢٨

٣٩ –معجم مصطلحات الأدب:صـ٧

٤٠– آن ماري:صـ١٢٨

سه:صـ١٣٠

٤١ –ديفيد سيد:صـ٨١

٤٢ –آن ماري:صـ١٣١

٤٣ –انظر شرح هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب ديفيد سيد:صـ٨١،وانظر أيضا المعجم الأدبي:جبور عبد النور:دار العلم للملايين: الطبعة الثانية:١٩٨٤م صـ٣٨٠

٤٤ نفسه: صـ٨٢

=

=

=

٤٥ انظر مثلا :ايمان تاورساجنت:اليوتوبية:صـ٣٤،ديفيد سيد:الخيال العلمي:صـ٨٢

٤٦ –ديفيد سيد:صـ٨٥

٤٩ –جورج أورويل:١٩٨٤: ترجمة أنور الشامي:المركز الثقافي العربي(الدار البيضاء–المغرب):الطبعة الثالثة(٢٠١٣م): صـ٢٣٧

٥٠ –نفسه:صـ٢٣٨

٥١ –نفسه:صـ٢٤٠

٥٢ –نفسه:صـ٢٤٥

٥٣ –نفسه:صـ٢٤٧

٥٤ –انظر :صـ٨٥

٥٥ –نفسه:صـ٩٦

٥٦ –نفسه:صـ٩٦

٥٧ –نفسه:صـ٩

٥٨ –نفسه:صـ٢٥

٥٩ –نفسه:صـ٧٤

٦٠ –نفسه:صـ٣٢

٦١ –نفسه:صـ٢٧٥

٦٢ –نفسه:صـ٨

٦٣ –نفسه:صـ٣٥

٦٤ –انظر أمثلة على إعادة كتابة الماضي في الرواية(صـ٤٢–ص_٤٤،صـ٤٩)

٦٥ –نفسه:صـ٢٥٠

٦٦ –نفسه:صـ٢٥١

٦٧ –نفسه:صـ٤٣

٦٨ –نفسه:صـ٤٣

٦٩ –انظر :صـ١٦٣

٧٠ –نفسه:صـ١٥٣

٧١ –نفسه:صـ٣٨

=

=

=

٧٢ –نفسه:صـ٨٠

٧٣ –انظر نفسه:صـ١٩٤–١٩٥

٧٤ –انظر :صـ٢٦

٧٥ –انظر :صـ٣١

٧٦ –نفسه:صـ١٨

٧٧ –نفسه:صـ٢١

٧٨ –انظر :صـ٦٩،٢٦،٨،٨٨

٧٩ جورج أورويل:مزرعة الحيوان:صـ٧

٨٠ نفسه:صـ٢٩

٨١ نفسه:صـ٢٩

٨٢ –نفسه:صـ

–٨٣نفسه:صـ٤٢

٨٤ _نفسه:صـ٤٣

٨٥ نفسه :ص ٤٨وانظر أيضًا صـ٥٢

٨٦ نفسه:صـ٥٧

٨٧ نفسه:صـ٥٩

٨٨ نفسه؛صـ٤٨

٨٩ –نفسه:صـ٥٥

٩٠ –نفسه:صـ٦٣

٩١ يعتبر ذلك أيضا حدثا مشتركا بين رواية ممر الفئرن وبين مزرعة الحيوان .

٩٢ –نفسه:صـ٨٣

٩٣ –نفسه:صـ٩٤

٩٤ فاطمة برججكاني:الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة ،قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ذبيان:إضاءات نقدية :السنة الثامنة :ع٢٩:آذار ٢٠١٨:ص١٣٢

٩٥ –أحمد خالد توفيق:يوتوبيا:دار ميريت للنشر (القاهرة)الطبعة الأولى(٢٠٠٨):صـ٥

=

=

=

٩٦ نفسه:صـ٥

٩٧ نفسه:صـ٧

٩٨ نفسه :صـ٢٠

٩٩ –نفسه:صـ١٢٦

١٠٠ نفسه:صـ١٢٦

١٠١ انظر يوتوبيا:صـ٨١_٨٢

١٠٢ نفسه

١٠٣ –نفسه:صـ٨٤

١٠٤ نفسه:صـ١٣٧

١٠٥ نفسه:صـ١٣٢

١٠٦ انظر صـ٨٣، ٨٤

١٠٨ –نفسه:صـ١٠٦

١٠٩ –انظر أيضا صـ٨١إلى ٨٢

١١٠ –نفسه:صـ ١٥٠

١١١ نفسه:صـ١٦

١١٢ _نفسه:صـ١٩وانظر أيضا صـ٢٧،٣٣،٣٧

١١٣ _نفسه:صـ٢٤

١١٤ _نفسه

١١٥ نفسه:صـ٦٨

١١٦ نفسه:صـ٧٨

117: انظر– https://ar.wikipedia.org/wiki/أغيار_(يهودية)،وانظر (مركز http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=5942 أيضا:
بيت المقدس للدراسات التوثيقية:ماوراء المصطلحات الصهيونية:الأغيار:ياسر درويش أحمد،وانظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية – دعبد الوهاب المسيري.

المجلد الخامس – الجزء الثاني – الباب الخامس عشر]

=

=

=

١١٨ –نفسه:صـ١٣١

١١٩ –نفسه:صـ١٣١

١٢٠ –نفسه:صـ١٣٢

١٢١ –نفسه:صـ١٨٨

١٢٣ –أحمد خالد توفيق:ممر الفئران:صـ٥

١٢٤ –نفسه:١٢

١٢٥ –نفسه:صـ١٣

١٢٦ –نفسه:صـ١٣

١٢٧ –نفسه:صـ١٤

١٢٨ –نفسه:ص٢٥٥

١٢٩ –نفسه:صـ١٨

١٣٠ –(الأرض الخراب أو أرض الضياع أو الأرض اليباب) تعد باجماع النقاد أروع أعمال إليوت الشعرية ،والقصيدة التي أكسبته شهرة كبيرة ،وهي تعبر عن خيبة أمل جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى ،وتصور عالما مثقلا بالمخاوف والذعر والشهوات العقيمة ،عالما ينتظر إشارة ما تؤذن بالخلاص . انظر للمزيد عن القصيدة كتاب دا٤عبد الواحد لؤلؤة :الأرض اليباب (الشاعر والقصيدة) ت.س إليوت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت):الطبعة الثالثة :١٩٩٥م

١٣١ –نفسه:صـ٢٧

١٣٢ –نفسه:صـ٢٨

١٣٣ –نفسه:صـ٣٧

١٣٤ –نفسه:صـ٥٠

١٣٥ –نفسه:صـ٥٣

١٣٦ –نفسه:صـ٥٥

١٣٧ –نفسه:صـ٦٤

١٣٩ –نفسه:١٥١

١٤٠ –نفسه:١٥١

=

=

=

١٤١ –نفسه:١٥٢

١٤٢ –عمرو عبد الحميد:قواعد جارتين:ص٢٦:ج١

١٤٣ –نفسه:صـ٣٠

١٤٤ –نفسه:صـ٤٠

١٤٥ –نفسه:جـ١:صـ٣٨

١٤٦ –نفسه:صـ٣٩

١٤٧ –نفسه:صـ٤١

١٤٨١٤٨ –نفسه:صـ٦٠٣

١٤٩ –عمرو عبد الحميد:دقات الشامو :صـ١٠٥

١٥٠ –يوتوبيا:صـ١٤

١٥١ –نفسه:صـ٣٣

١٥٢ –دقات الشامو :صـ١٤١

١٥٣ –نفسه:صـ١٤٩ ،وانظر صـ١٦٥،١٦٤،١٦٣

١٥٤ –نفسه:صـ١٧٦

١٥٥ –نفسه:صـ١٥

١٥٦ –نفسه:صـ٧٣

١٥٧ –ممر الفئران:صـ٣٢٨

١٥٨ –قواعد جارتين:جـ١:صـ٢٨

١٥٩ –ممر الفئران:صـ٢٤٧

١٦٠ –نفسه:صـ٢٤٨

١٦١ –نفسه:صـ٢٥

١٦٢ –نفسه:صـ٢٥٣

١٦٣ –نفسه:صـ٣٢١

١٦٤ –نفسه:صـ٣٦٨

١٦٥ –نفسه:صـ٣٧١

١٦٦ –نفسه:صـ٣٧٤

١٦٧ –نفسه:٣٧٦

=

=

=

١٦٨ –نفسه:انظرصـ٢١٥،٢١٣

١٦٩ –نفسه:صـ٣١

١٧٠ –نفسه:صـ٣٤

١٧١ –انظر صـ٩٣،صـ٩٤

١٧٢ –نفسه:صـ٩٤

١٧٣ –نفسه:صـ٦٤

١٧٤ –انظر مشهد صـ١٠٧ إلى صـ١١١

١٧٥ –نفسه:صـ١٢٧

١٧٦ –نفسه:صـ١٢٩

١٧٧ –انظر صـ٧٥

١٧٨ –يوتوبيا :صـ٦٥

١٧٩ _محمد ربيع:عطارد:التنوير :الطبعة الأولى ٢٠١٥م:صـ١٢

١٨٠ –نفسه:صـ١٤

١٨١ _نفسه:صـ٥

١٨٢ _نفسه:صـ٤٠ وانظرمشهد القتل المتبادل بين رجل وإمرأة في شارع مظلم صـ٥٥

١٨٣ –نفسه:صـ٧٨

١٨٤ –داحميد لحمداني:أسلوبية الرواية:صـ١٧

١٨٥ –نفسه:صـ٢٤

١٨٦ –نفسه:صـ٢٥

١٨٧ –عبد الملك مرتاض:في نظرية الرواية:صـ١١١

١٨٨ –يوتوبيا:صـ٢٤

١٨٩ –نفسه:صـ٨٨

١٩٠ –ممر الفئران:صـ٨٤

١٩١ –نفسه:صـ١٥٢

١٩٢ –نفسه:صـ١٦٦

=

=

=

١٩٣ –نفسه:صـ١١

١٩٤ –انظر:صـ(١٢–١٣)

١٩٥ –نفسه:انظر صـ(١٥–١٦)

١٩٦ –نفسه:صـ٢٥٥

١٩٧ –نفسه:صـ٣١،وكررت صـ٣٠٠

١٩٨ –نفسه:صـ٢١٩

١٩٩ –نفسه:صـ٣١٧

٢٠٠ –انظر:عطارد صـ(،٩٥، ١١٨، ٢١٦،١٣١،٧٢،٤٤)

٢٠١ –انظر:عطارد:صـ٤٦،٤٤،

٢٠٢ –مثلا مشهد صـ١٣١

٢٠٣ –نفسه:صـ٣٠٠

٢٠٤ –الشخصية في السرد ليست مرادفا للشخص في الواقع ،بل يمكن أن تكون شخصيات مجازية لها دورها في السرد ،وذلك وفقا لنظرية العوامل لغريماس،والتي استفاد بها فيما بعد فيليب هامون ،وقسم الشخصيات لأنماط مختلفة منها الشخصية المجازية ،مثل الحب والكره وغيرها ،وحينها قد تمثل هذه الشخصية بممثلين مختلفين في السرد.

٢٠٥ –علم اللسانيات الاجتماعية نشأ في العصر الحديث وكان من اهتماماته ضبط القوانين التي تحكم حركة اللغة عند تفاعلها مع البنى الاجتماعية وذلك بهدف استثمارها عند رسم السياسات اللغوية انظر:بلال دربال:السياسة اللغوية المفهوم والآلية :مجلة المخبر:جامعة بسكرة:الجزائر:العدد العاشر (٢٠١٤م):صـ٣٢١،وانظر أيضا:دا\علي القاسمي:السياسات اللغوية بين التطوير والتدمير:بحث مقدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة(أبريل٢٠١٨م) :منشور اليكترونيا:http\\www.hamassa.com\2018\05\02

٢٠٦– عماد عبد اللطيف:اللغة والثورة (نقد الخطاب السياسي في أعمال جورج أورويل):مجلة نزوى:maaber.50megs.com\issue.april12\lookout1htm

=

=

=

٢٠٧ –جورج أورويل:السياسة واللغة الإنكليزية:ترجمة عدي الزعبي:الجمهورية نت:http\\www.aljumhuriya.net\ar\38285

٢٠٨ غوستاف لوبون:سيكولوجية الجماهير:مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع:الطبعة الأولى :٢٠١٥م:صـ٦٧

٢٠٩ –نفسه

٢١٠ –نفسه

٢١١ –انظر دراسة مفصلة عن استخدام اللغة في رواية مزرعة الحيوان(عماد عبد اللطيف:اللغة والثورة)

٢١٢ –جورج أورويل:١٩٨٤:صـ٦١

٢١٣ –نفسه:صـ٦٤

٢١٤ –نفسه:صـ٦٤

٢١٥ –انظر د\عادل مصطفى :المغالطات المنطقية(فصول في المنطق غير الصوري):المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠٧م:صـ١٧

٢١٦ –نفسه:صـ١٨

٢١٧ –د\طه عبد الرحمن:التكوثر اللغوي:المركز الثقافي العربي:صـ٢٥٩

٢١٨ –عادل مصطفى:المغالطات المنطقية:صـ١٠١

٢١٩ غوستاف لوبون:سيكولوجية الجماهير:صـ٢١

٢٢٠ –نفسه:صـ٢١

٢٢١ –نفسه

٢٢٢ نفسه:صـ٢٤

٢٢٣ نفسه:صـ٢٦

٢٢٤ نفسه:صآ٤٣

٢٢٥ –نفسه:صـ١١٠

٢٢٦ –نفسه:صـ١١٥

٢٢٧ –نفسه:صـ٨٥

٢٢٨ –نفسه:صـ١٢٧

٢٢٩ –نفسه١٢١(بتصرف في ترتيب الكلام ،والصياغة)

=

=

=

٢٣٠ –نلاحظ هنا اشتراك بين الأخ الكبير في رواية(١٩٨٤م) وبين القومندان في (ممر الفئران) من حيث الغموض المحيط بكل منهما والحجب عن الناس والتقديس من جهة والرهبة من جهة أخرى. كذلك أن الحكم كان من نصيب زمرة أو مجموعة كاملة حتى لا يتم تخطيهم بسهولة ،مع وجود الرمز من أجل توجيه عواطف الشعب تجاه شخص واحد.

٢٣١ –ممرالفئران:صـ١٨٠

٢٣٢ –ممر الفئران:صـ٢٧٠

٢٣٣ –نفسه:صـ٢٧٨

٢٣٤ –نفسه:صـ٣٦٦

٢٣٥ –نفسه:صـ١٨٢

٢٣٦ –نفسه:صـ٢٤٧

٢٣٧ –نفسه:ص٢٥٠،وقد كررنا هذا الاقتباس مرة أخرى لأهميته في الموضعين.

٢٣٨ –انظر :صـ(٩٤–٩٦–١٠٣)

٢٣٩ –نفسه:صـ٩٥

٢٤٠ –سعيد يقطين:قضايا الرواية العربية الجديدة:صـ٩٧

٢٤١ –د.شاكر عبد الحميد:التفضيل الجمالي(دراسة في سيكولوجية التذوق الفني):الهيئة العامة لقصور الثقافة:القاهرة ٢٠١٦م:صـ٣٧٦

٢٤٢ –نفسه:صـ٣٤٥

٢٤٣ –نفسه:٣٦٨